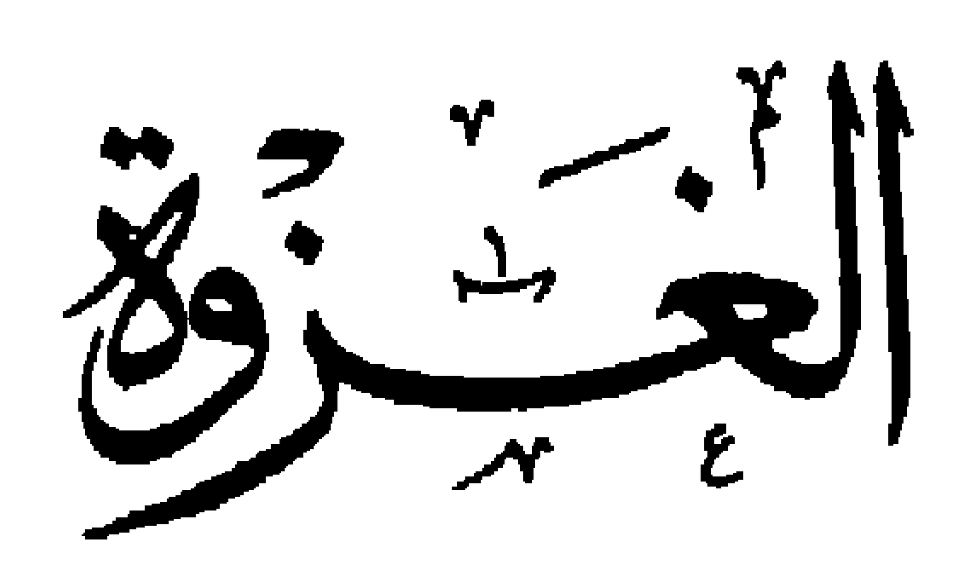
أمين الزاوي

الغزوة

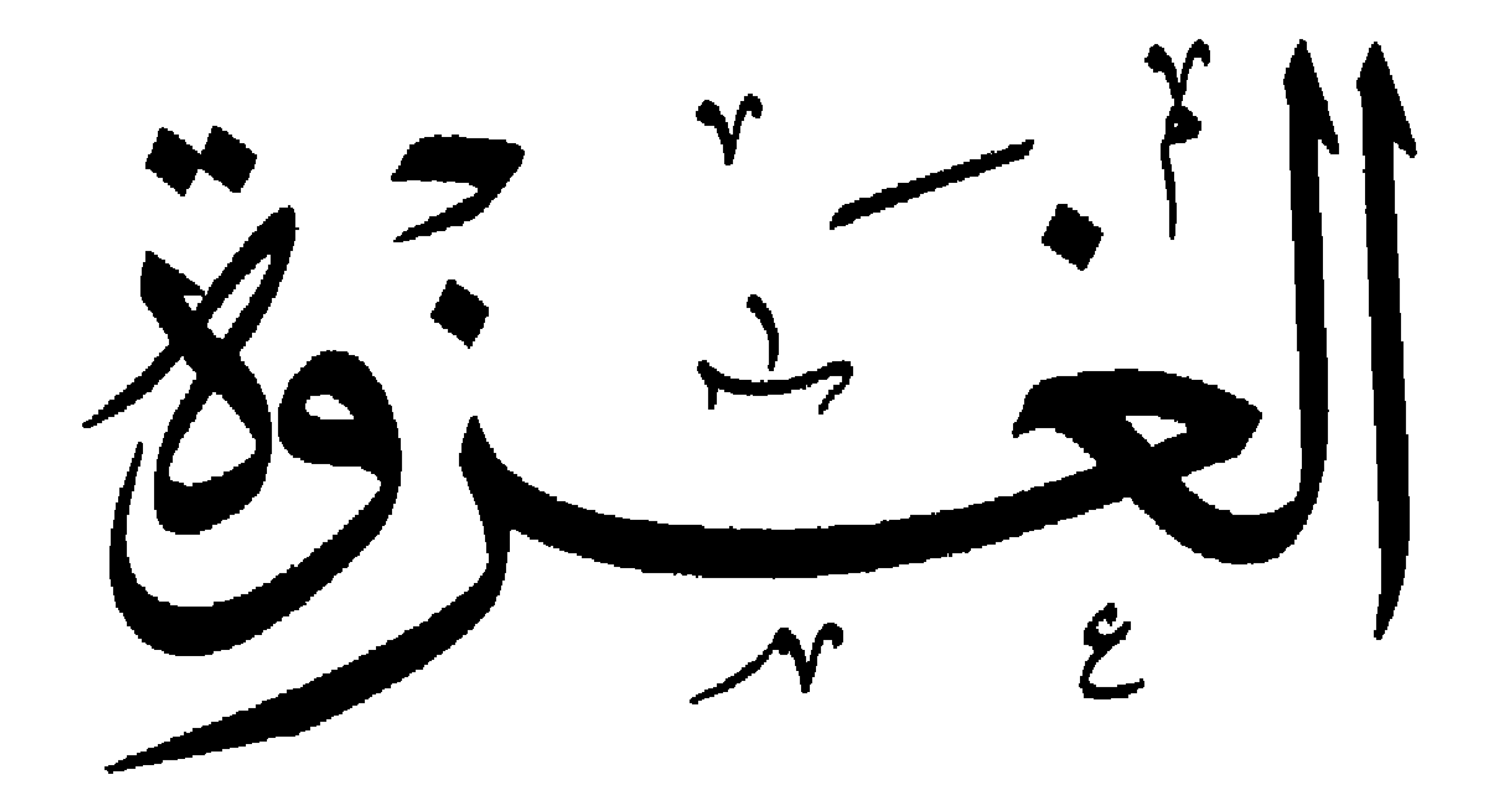


El djazair
éditions

رواية


الغزوة

أمين الزاوي



ترجمة عبد الرحمن مزيان



• الغزوة
• رواية – أمين الزاوي – ترجمة عبد الرحمن مزيان
• العنوان الأصلي للكتاب La Razzia
الإيداع القانوني 2348 – 2008 / ر د م ك 1- 6 - 9667 - 9961 - 978
• الطبعة الأولى 2008

• عدد النسخ 1000 نسخة
• التدقيق اللغوي : صايل الكفيري
• لوحة الغلاف ميسون علم الدين
• الإخراج الفني والغلاف : مناف نفاع
• الناشر

El djazair éditions
13 RUE LES FRERES BOULAHDOUR
16000, ALGER, ALGERIE.
TEL/FAX : (++ 213) 21 74 45 44.

• التوزيع في انحاء العالم :

النايا
للدراسات والنشر والتوزيع
سورية – دمشق ص . ب : 2322
هاتف :5626576. فاكس (11 963+) 5630559 / جوال : 693 624 944 (963+)
البريد الإلكتروني : safi_nayaa@hotmail .com

الإهداء

إلى التي حولت حَرَّ الرملِ

ضياءً . . . مريم زوجتي

المترجم

مستشفى الجذام

كنت مسرنماً ، أعبر البهو ثم المطبخ والشرفة الكبيرة . من هنا أسيطر على أضواء هذه المدينة المنسية ؟

لماذا أنا وأنا فقط أفكر في هذا الماخور الذي دفنه الجميع في مقبرة النسيان .

يحصل له - وهذا يحصل لي - ألا يتحدث إلى أحد ، وأن يبقى هكذا في صمته ، في اكفهراره ، مسمراً على كرسيه الخشبي من طلوع الشمس إلى غروبها وحتى جزء من الليل . شيء ليس له معنى ، يدفعه أكثر فأكثر إلى مقاطعة الحياة .

يسمى مسعود ، وهو أيضا اسم أبيه ، وجده وخاله . أمه تسمى مسعودة .

هذا المساء كعادته ، عندما لا تكون امرأة في سريره ، عندما يشبه سريره القبر ، كان مسعود بن مسعودة يدفن نفسه في سجله الكبير المجلد بسختيان أسود . هذا يدوم منذ ثلاث عشرة سنة ، ويستمر في كتابة يومياته . في صحراء الورقة البيضاء ، يتعرى ، مستسلماً لريح الحروف المتوحشة .

ويكتب :

هذا الصباح ، أمام الباب الفولاذي المصفح لهذه العمارة المعلقة مثل حبل أزرق ، في الطابق السادس عشر وضعت علبة صغيرة غريبة ومحيرة ملفوفة

بعناية في ورق أسود . بعد لحظة من التردد أخذتها وفتحتها : فيها قطعة من الصابون وقطعة من القماش الأبيض للكفن وقنينة صغيرة من عطر جيد ، يسمى بلوم-بلوم ، عطر الموتى ، وجملة قصيرة مكتوبة بالعربية الفصحى على ورقة مقطوعة من كراس مدرسي : «إنها نهايتك ، أيها الملحد .»

أرتشف قهوتي السوداء ، مذاقها بالبهار يوقظ خفقان منخري ، كنت واقفاً ومحتاراً ومضطرباً . كنت أحب القهوة التي مذاقها حارٌ نوعاً ما . ورثت هذه العادة عن جدي الذي أيضا يسمى مسعود ويحب القهوة حتى الجنون . حالة فوق السكر .

لقد مات والفنجان في الفم .

سريري مملوء . أشاهده وأمتلئ .

في الأسفل ، مدينة نسيها الفرسان المتعبون ، أو هجرها أجدادنا القراصنة المشهورون على شاطئ هذا البحر الذي يفقد أكثر فأكثر لونه وملحه . في شارع الألزاس لورين الذي سمي منذ السنين الأولى للاستقلال محمد خميستي ، تحت شمس عمياء وصراخ المارة الحزانى بملامحهم الباهتة وضجيج منبهات السيارات المندفعة من كل الأنواع ، فرنسية ، يابانية وألمانية ، كان يصل إلى هذا الطابق الذي نقطن فيه ، نحن الأربعة منذ خمس سنين . المصعد عاطل منذ عشرين سنة . حجرته تحولت إلى شقة صغيرة . تشغلها امرأة وعشيقها وأبناؤها الثلاثة . أحب انتظار الوقت الذي تكون فيه هذه المرأة في نار نشوتها ، في عز الليل الشتوي أو الصيفي ، لا يهم ، تطلق دون تحفظ غنج ذئبة ضارية . أتصورها بصدد افتراس زوجها بانقضاضات صغيرة . اسمها زفطة ، هذه الكلمة تعني «جميلة» باللهجة الوهرانية .

أشعر بأني مقطع . أحاول جمع شتاتي ، وترتيب عناصر موضوعي . شيء يثقل على قلبي ، لا أعرف ماذا ، إحساس بكآبة أو قلق . . . في الخارج ضاعت الشمس في سماء زرقاء متقرحة . تحول جسدي إلى جثة ، أحسها ضخمة ولا حياة لها مثل شيء لا معنى له لها برج يشبه ضفدعة خرافية .

كنت أختنق ، وتعطلت دورة المياه منذ خمسة أيام وست ليال . رائحة التخمر والقيء الكريهة المتأتية من الحمام المتسخ ، تجتاح البهو والمكتبة وأنفي وغرفة النوم .

أفقد مذاق القهوة .

أرغب في ممارسة الجنس ومشاهدة فيلم لهتشكوك وشرب كأس من الخمر أو أي شيء .

عندما لا تكون هناك امرأة متوحشة ، زفطة ، في سريري ، عندما لا أملك ناراً تتأجج تحت الأغطية الوردية التي تستبدل كل يوم ثلاثاء ، أعود إلى يومياتي لأتعرى على الصحراء البيضاء للورقة ، أمام اشتعال الحروف وجنون الكلمات .

مصلوبة في البهو بشهية ، كانت الساعة النحاسية تفترس بهدوء وبلا مبالاة الساعات والدقائق وقلبي أيضاً ! هذا منذ سفري الأخير إلى بيروت ، منذ أكثر من ست سنوات . أحب شارع الحمراء في بيروت ، والمطربة فيروز والساحل البحري .

أجدني عميقاً هكذا وشارداً في تفاصيل لوحة للرسام محمد خدة ، هدية زواجنا ، معلقة منذ أربع سنوات في حائط الممر المظلم المغلف بالخشب البني . منذ أربع سنوات ، وربما أكثر ، لم يكن لي الوقت الكافي لأشاهدها وأتأملها ملياً وأعجب بها . شيئاً فشيئاً ، اكتشفت في اللوحة آية من الألوان الحزينة

والفضولية شبيهة لآية هذه السماء المعلقة فوق رؤوسنا . سماء ، مثلي ، بلا ملامح ولا جذر ، على الأصح شيء على شكل قبة باكية وغير دالة .

كنت أبحث عن ذاتي في مرآة : هل وجهي المغبر والمشقق أم هو وجه المرآة التي تخدعني ؟

ها أنا أمام هوة بلا نهاية . صخرة . ها أنا ، دون سبيل ولا رائحة ولا ظل : كم هو فظيع وحارق أن تجد نفسك خاوياً ، حتى لو كان ذلك للحظة قصيرة . أجر جسدي نحو الشرفة ، هذا الوزن الثقيل أو هذه الكتلة المنهكة التي تتبعني وتطيعني . القدر أو اللعنة .

أرغب في ممارسة الجنس ، أحرى من التأمل ملياً في شعر جسد زوجتي العاري ، الذي يشبه كأساً من الخمر المعتّق .

أنشد لزوجتي قصيدة لعمر الخيام :

اجعلوني في الراح الوضوء الأخير

صلوا على جسدي وأنتم تشربون

تعالوا أصدقائي إذاً ، يوم القيامة ،

إلى عتبة الحانة ، لتبحثوا فيها عن غباري .

في الأسفل ، في الشارع ، في صراخهم العنيف ، كان المارة صامتين ، مهمومين ومحتارين . ببسماتهم ، بنظراتهم الثعلبية كانوا يطعنونني في الظهر . على الرصيف الندي ، المتسخ والقذر ، امرأة محتارة ، جميلة ومنسية في جوف السأم ، تبحث عن ذاتها في فراغ مملوء بالعدم ، لا شيء على لا شيء أوهام أو أشباح مقعرة وماكرة .

أريد أن أطلق صرخة ، عويلاً ، لا أعرف لماذا ولمن .

أرغب في ممارسة الجنس أو بالأحرى كعادتي أن أطلي جسد زوجتي بالعسل الخالص للحسه .

أدخن عينيها ، إنها جميلة كما ينبغي ، إنها جنة الخمر

أن أشرب الخمر ، فذاك يعرفه الله من قبل .

لكن إذا لم أشرب أبدا ماذا سيعلم إذاً ؟

لكن .

عندما تتربع الصحراء على سريري ، أكتب كي لا أفقد الجناحين والأرض من تحت قدمي ، لأمدد معاناتي الحلوة ، حتى لا أموت .

تشبه المرأة التي على الرصيف ، والتي تجر الطفل الصغير ذا الخمس سنوات ، ربما أقل وربما أكثر قليلاً ، أختي التوأم ، نوبة ، التي اختطفها الملتحون منذ ثلاث .... لست متيقناً من تاريخ اختفائها . هل كان يوم الثلاثاء 13 كانون الأول 1994 أو كان يوم 25 تشرين الثاني 1993 ؟

أنا متيقن بأن نوبة ما زالت على قيد الحياة . قلبي يقول لي هذا ، وقلبي لا يكذب ولن يكذب أبداً . فهي تختبئ ، وهذا منذ موتها المزعوم ، في مكان ما عند عشيقها ، علاء ، عازف العود ، في حي المرسى المشهور بحكايات صياديه ومروجي الحشيش المجلوب من كتامة في المغرب . ولأنها لم تمتلك صوتاً جميلاً ، كانت نوبة تحلم بأن تتحول إلى أغنية ، أو صلاة في فم الملاحين وفم هواة شرب الخمر ، كانت تحب أن تتحول إلى حكاية لتنقذ ألف ليلة وليلتين لشهرزاد ، أمام جلادها ، شهريار . يا لها من حالة !

في آخر اليوم وككل يوم ، يزقزق السنونو أمام الشرفة .

أرغب في ممارسة الجنس ، جسدي يأكلني ، ويحدثني ويصرخ بي .

عندما أفكر في أختي ، تستعيد أذناي غنج المرأة ـ الذئبة في ذروة شهوتها ، في حجرة المصعد ذات المترين مربعين .

على الأصح هذه المرأة الوهمية التي تمشي الهوينى على هذا الرصيف المبلط ، تشبه زوجتي التي لم تغادر بعد سريرها . دون شك تكون قد استيقظت وما تزال مستلقية في تعبها الصباحي الذي تشعر به بعد كل سهرة حيث نستهلك رأسا لرأس بعض الكؤوس من الخمر .

اختفى الشتاء في الحر ، والأيام أصبحت أطول وأطول . ونحن نصدم كأسا بكأس .

أفتح قنينة أخرى ، مراقباً أقل نسمة حب في كلامها بالإسبانية .

بعينين جميلتين وذابلتين ، زوجتي التي تسمى أيضا نوبة ، رجتني أن أغادر هذه المدينة المحمومة ، المرمية داخل هوة لولبية .

تخطيت هوة مدوخة ، بلا قعر وبلا جوانب وبلا نهاية .

في الليلة الماضية ، بعد أن شربت كأس خمرها الممزوج بالقهوة دفعة واحدة ، بكت بعمق . تكون جميلة عندما تبكي . أعرف أن نوبة تجد عزاءها في الدموع . تخفي في قلبها الجوهري ، الخوف الأزرق حتى لا تصاب بسرطان الثدي .

كان قلبها منقبضاً .

قلت لها : «الحياة لم تفقد ملحها بعد .» قبلتها .

الوهم !

نوبة جميلة ، امرأة شمسية . أيام الجمعة وبعد زوال أيام الاثنين ، أحب أن أتأملها وهي بصدد مشاهدة نفسها في مرآة كبيرة ، موضوعة أمام باب

الشرفة . لها مشية جميلة جدا ، في الحقيقة هي لا تمشي بل ترقص . نوبة عجينة أخرى ، في البداية لم تكن تحب الجماع . كانت تنظر إلى كل جماع كاغتصاب للمرأة ، وبأنه عار وسلوك غير أخلاقي . أنا أيضا كنت أفكر بالطريقة ذاتها .

الطفل في هذه المرأة– الشاطئ .

قضينا عشرين سنة معاً ، وأرغب دائماً في عسلها . أمام سلوكها الخجول ، الشعري والشرقي ، وشغفها الكبير بعودها المشترى من دمشق ، المدوزن جيداً والمحفوظ بعناية . أنا عطشان . صورة الحورية تخجلني .

أقرأ في ديوان عمر الخيام :

قيل لي : « بأنها جميلة ، حورية السماوات !»

قلت أنا : إن ابنة العنقود أحسن .

أفضل الحاضر بوعوده الجميلة :

فالطبل يظهر شجياً من بعيد !

أنا مؤمن ، لكني أحب شرب الخمر ومشاهدة الأفلام الإيطالية ، وقراءة الروايات حول البحار وخيانة زوجات السياسيين وزيارة معارض الفنون التشكيلية إبان الشتاء . بالنسبة إلى نوبة فهي تفضل قراءة المجلدات الكبيرة للفلسفة الهندية والشعر الإسباني . تحب لغة سرفانتس وجارسيا لوركا . تمارس تأمل اليوغا مرة في الأسبوع ، زوجتي ليست مؤمنة . قبلت هذيانها وتعليقاتها العميقة الوقحة والفلسفية حول الدين . فهي ترى ظاهرة الحوريات كنوع من الدعارة .

اليوم الجمعة ، رأسي يؤلمني ، يوم مكفهر وحزين . لي حساسية تجاه الأيام الدينية . أيام الجمعة ، ككل يوم جمعة ، السماء منخفضة ووابل من الخطاب الأخلاقي المضجر المهيج يهطل على الرؤوس .

كنت أسمع من القاعة ، وأنا جالس على الكرسي الخشبي البني صوتاً محموماً من مكبر صوت منصوب في أعلى عمارة في الحي . هذا صوت إمام شاب مريض بالجنسية الطفلية طالب سابق في كلية الطب ، مستهو لأجساد الأطفال ، قطع دراسته في علم أمراض النساء ، وسافر إلى العربية السعودية ليعمق معارفه في علم اللاهوت . بعد إقامة سريعة في أفغانستان حيث شارك في الحرب المقدسة ضد الجيش الأحمر ، رجع إلى هذه المدينة ليعلم كتاب الله في مدرسة قرآنية جديدة أنشأها في دهليز العمارة .

لغة الطير

كانت غاطسة في نومها الصباحي والعسلي ، بشفتين مرسومتين بدقة وتوحيان بالعظمة على فمها الصغير ، تشبه نوبة تلك المخلوقات بالأجنحة على لوحات ماتيس أو مشيل- أنج . أتأمل سمات الملاك . إنها متعبة بعد ليلة مناوبة طويلة في المستشفى .

على عتبة الموت ، نمزح .

أحب مجامعتها عندما تكون متعبة .

أمام هذه الحياة الملتهبة التي تسكن عينيها الجميلتين السوداوين العميقتين مثل محيط ، قلت في نفسي : هذه المرأة الجميلة لم تجعل ولم تخلق لتكون طبيبة . مثل أختي نوبة ، المخطوفة منذ ثلاث سنوات ، زوجتي ، هي أيضا ، لها ميولات للموسيقى والشعر والرقص .

الليل ، مثل كل ليلة ، تزعق الخفافيش على جوانب النوافذ . وهذا يجعلني حزيناً ومكروباً .

بعد كل ليلة مناوبة في المستشفى ، في مصلحة حيث تتكدس مئات الأجساد مجهولة الهوية : أطفال ونساء وشباب ورجال ومدنيون وعسكريون وملتحون ومحلقون . . على مدى أسبوع ، نوبة لم تتوقف عن الهذيان ، ضحية لتخيلات كبيرة ، كانت تدخن سيجارة إثر أخرى وتشرب كأساً تلو كأس ،

قهوتها العربية مزيج من النبيذ الوردي اللون أو البرندي ، كانت تجلس كما لو أنها غائبة ، مسمرة في الشرفة ساعات وساعات .

لم تكن تحب صورة الدم . تكون خلال أيام حيضها مضطربة ومنفعلة . أراها تحاول الخروج من جسدها ، تغادره وتستهلك بإفراط كل أنواع الخمر والمشروبات الروحية ، تاركة نظرتها المتعبة تتجول بحرية في الشرفات والأرصفة التي يشغلها حديثاً القرويون الفارون من الرعب والمجازر والأرصفة والسماء المحجوبة بالغيوم المكفهرة المزرقة . هذا الشارع السفلي يهيجها إلى حد الدموع ، ويجعلها رقيقة وشفافة وصبيانية .

قالت لي بلغة عصفور ، وهي تضمني بذراعيها : «أشعر أن هذه المدينة المنسية مشيدة في عمق هاوية قاسية .»

سقيمة وذاوية كانت تحاول في سفرها الباطني لمُ شتات الروح المنفجرة .

تكون ككل ليلة مناوبة في قسم الإسعافات في المستشفى الجامعي ، مرعوبة ومرتجفة ، كانت نوبة تقضي ليالي طويلة بين ذراعي ، لا تتوقف عن مطالبتي بأن أضاجعها ، راجية مني أن أكون عنيفاً .

«زد ، أكثر عنفاً !» قالت لي . أسمع الغنج ، غنج زوجتي أو غنج هذه الذئبة التي تشغل حجرة المصعد ذات المترين المربعين وربما أقل . كانت لا تحدثني إلا بالإسبانية ، اللغة التي تحبها أكثر ، طالبة مني أن أسقيها خمراً . تدخن دون انقطاع ودون أن تنتبه لنوع سيجارتها ، كانت تنفث الدخان أحياناً وهي تقرب فمها من فمي حتى الالتصاق . أحب هذا اللعب بالدخان !

أحياناً ، كنا نقضي لياليَ طويلة في عد أسماء الورد ، الأزهار والرسامين وعناوين الأغاني والأفلام والكتب والقصائد والأصدقاء المغتالين والأماكن التي

لا توجد إلا في أذهاننا أو في لغتنا ، لغتنا التي بدورها لا توجد إلا في أعيننا ونظراتنا المملوءة بالخمر والخوف . وفي آخر كل سهرة نمضيها كالمعتاد حتى الفجر ، كل واحد منا ينظف أسنانه بمعجون الأطفال ، الذي نحب تقاسمه مع طفلينا . ثم يلتحق كل واحد بصمت بسريره متمتما للآخر باحترام كبير وبتعبير ركيك وفارغ «طابت ليلتك»

الخفافيش تنام وتتوقف عن الزعيق وتستيقظ طيور أخرى .

يوم آخر على الباب .

كنت أقول في نفسي مفكراً في نوبة زوجتي أو أختي : صعب وغير محتمل أن نعيش الطفولة بشكل دائم ، ناسين الجزء الأكبر المنير والمكسر والعميق للشيطان ، هذا الشره النائم في ظل أحلامنا واستيهامنا .

أدس يدي تحت شعرها الحريري .

في هدوئها وإسبانيتها الليلية ، كانت تخبئ لي الزمرد الحي في عينيها وجنات عطر جسدها العجيبة .

تنام ، كقربان للعدم . لم أكن متيقناً .

شمس أخرى على الرأس .

وحدهم الأموات
قادرون على الاحتفاظ بمقابرهم

سمح لي بأن أتصفح المخطوطات التي عثر عليها في دير آدم هذا التي في مجملها رسائل اعتراف ، معاهدات موثقة أو يوميات شخصية كتبت من قبل الرهبان ، في لغة ملغزة ومضللة . أخوات وإخوان كانوا يتحدثون عن الأعضاء الحميمية لأجسادهم ، عن مواعيدهم الليلية ، ودواوين الشعر المخفية تحت أغلفة من الجلد منزوعة من كتب أخرى . كانت هناك حتى أخوات مضيفات في الطائرة ، محبات لبودلير وأرثور ورامبو . كنت أقرأ في الليل الجرائد .

كانت تعمل هذه المرأة في النهار بحذر وخوف وعملها يكمن في دفن رأسها منذ الصباح في ألبوم صور عظام الموتى المنبوشة من كنيسة هذا الدير ، التي أرادت السلطات المحلية لهذه المدينة الصغيرة التي تحتقر البحر ، تحويلها إلى مركز ثقافي . فكرة جيدة . . المرأة التي تشاهد الصور الملونة لعظام الموتى تشغل بهو المكتب نفسه حيث أتفحص هذه الوثائق .

منذ خمسة أشهر وأنا في هذا الدير ، في بلاد البرد والمطر والجعة والأبقار وبضع مئات من أنواع الجبن ، كانت مخطوطات الرهبان وأخوات وإخوان ، هم وحدهم فقط السبيل الجيد لأهرب . بدأت بقراءة مخطوطات هؤلاء الرهبان المعذبين بالوحدة

وصـــراخ أجســـادهم المتعطشـــة للحـــب ، أغلبـــهم وجـــد مـــدفوناً في الكنيسة وكراسه بين يديه .

قرأت في رسالة وجدتها من بين عدد من الأوراق : «صـديقي العزيـز ، هـذا اليوم ماطر ، دفنا ماري– تيريز وجدت منتحرة في غرفتها– زنزانتها . لقد كانت جميلة ومؤمنة .»

«الأسبوع المنصرم ، في عز الصلاة ، سقط سور الدير علـى الأب وتسـعة عشر راهباً .»

هـذا المسـاء انقطـع مسـعود بـن مسـعود مـع الصـمت . إنهـا أول مـرة منـذ وصوله إلى بلد البرد ، والبقر والجبن ، الـتي بدأ يكتـب فيهـا يومياتـه . إنهـا رسـالة ماري– تيريز ونظرة هذه المرأة بسروال الجينـز المتسـخ والمرقـع علـى الـردفين همـا اللتان دفعته في جحيم الكتابة ، الأثر .

مسعود بن مسعود ، ماذا كتبت :

أنا أيضـاً سـأترك مخطوطتي في هـذا الـدير ، إلى جانـب مخطوطات هـؤلاء الرهبان ، الأخوات والإخوان . حييت المكان المقدس ، مكان الله .

هذا الصباح سمعت المرأة بسروال الجينـز المتسـخ والمرقـع علـى الـردفين تقول لأخرى تسمى كارين :

«يتفـــق ، حســـب النتـــائج الأولى لتنقيبنـــا الأركيولـــوجي وأيضـــا حســـب التقـــارير العلميـــة للشـــرطة القضـــائية ، أن عظـــام المـــوتى المنبوشـــة وبقايـــا أجســـاد الشـــيوخ ، العجـــائز ، الشـــباب والأطفـــال ؛ تشـــير إلى عـــدوى اجتاحت القرية .»

لقد واجهنا لغزاً لا مثيل له .

كانت المرأة بسروال الجينز المتسخ والمرقع على الردفين وحتى الركبة اليسرى ترميني بنظرة مليئة بالاستفهام، مليئة ب... على الكرسي الذي كنت جالساً عليه، كنت أشعر أني كشيء ليس في موضعه. كنت أشعر كرجل في حذاء مثقوب. محاطٍ بعظام الموتى والمرأة بسروال الجينز المرقع، والتي تشغل المكتب نفسه مثلي، تحلل بدقة صورة ملونة لجثث.

كدت أن أتقيأ.

أفكر في ماري التي كانت تحب قصائد رامبو، وتخبئ تحت الأغطية الدينية البيضاء أزهار الشر لبودلير.

إنها تقريباً العاشرة صباحاً، أو على الأصح الحادية عشرة، لم أثبت ساعتي على التوقيت الصيفي بعد، الطعم الرديء للقهوة التي شربتها في البيت المرتفع، غرفتي، تقبض على قلبي. ملعونة القهوة التي تذكرني بجدي، الذي مات بفنجان في الفم. كانت المراة بالجينز في حديث جِدّي مثل الحديث العلمي، تشرح لكارين أو نوبة، لا يهم:

«هذه الجمجمة أجنبية. إنها غريبة أيضاً. ليس لها المكونات نفسها ولا خصائص الجماجم التسع والأربعين الأخرى»

الفرقة الصغيرة المكلفة بمتابعة أعمال الترميم وفي الوقت نفسه بتنظيم بعض التظاهرات الثقافية حول الفرنكوفونية، حول تاريخ وعلم اجتماع الموت، حول علم الجمال، لم تتوقف منذ خمسة أشهر حيث نزلت في هذا الدير عن الحديث والشرح لمراسلي الصحافة المكتوبة وصحافة التلفزيون حول فرصة ترميم وتحويل هذا الدير إلى مركز ثقافي.

أفكـر في كـل الكنـائس والكاتـدرائيات في بـلادي ، الـتي تحولـت منـذ الاستقلال إلى مساجد أو حطمت من أجل أن يستخدم حجرها في بناء فيلات الجنرالات أو مسؤولي الحزب .

منذ الصباح الأول حيث عبرت عتبة هذا البهو-المكتب الذي أتقاسمه مع هذه المرأة بالجينز المرقع ، وأنا محاط بعظام الموتى وبالصور الملونة لمئات الجثث . المرأة التي تسمى ماتيلد ـ حفظته بعد خمسة أشهر ، زملاؤها ، أو الذين في فرقة البحث وأيضا فرقة التنشيط الثقافي ، ينادونها ماتي- ، هذه المرأة لا تتوقف عن مشاهدة رأسي . تبقى ساعات وساعات لا تشاهد إلا رأسي . لها عينان منيرتان ، بأزرق المرآة .

أمرر يدي على رأسي ، أجده يغلي ، حقا ، إنه كبير نوعاً ما ، ودائري أكثر نوعاً ما . وأدركت أن شعري طال كثيراً ، أصبح طويلاً ، غطى جبيني وقفاي . أذناي بدورهما تسقطان على كتفي مثل أذني كلب بولدوق أو سلوقي . أحاول أن ألقي نظرة سريعة على المرأة بالجينز المرقع . كارين أو نوية ، لا يهم ، هي أيضا تنظر إلي ، أو بالأحرى ، إنهما مصوبتان على رأسي ، وبدأت أشعر أن رأسي أصبح ثقيلاً على رقبتي . المرأة الأخرى التي تلبس الجينز المرقع ، هي أيضاً لا تنظر إلا إلى رأسي ، صورة بالألوان لعظام الموتى مازالت بين يديها البيضاوين مثل الشمع . لها عينان بزرقة المرآة .

هـذا المسـاء ، نظـرت طـويلاً إلى رأسـي في المـرآة ، قضـيت أمـام رأسـي أكثـر مـن سـاعة وخمـس وثمـانين دقيقـة وسـبع وثلاثـين ثانيـة . إنهـا المرة الأولى الـتي أنظـر فيهـا إلى نفسـي بمثـل هـذه الدقـة . لم أعـرف نفسـي . لم أتخيـل أبـداً أنـي كنـت هكـذا ! أشـبه لشـخص تقاطعـت معـه في مبولـة

حانـة . لقـد بلنـا جنبـاً إلى جنـب . بعـد ذلـك تكلـم في المـرآة قـال أشـياء مهمـة في السياسـة والشـعر . لم يكن ثملاً .

هذا المساء ، لا أخفي عنكم ، أنـي أخرجـت المتر القماشـي ، متراً مليمترياً من الوجهين ، متراً أصـفر زعفرانياً . عندما كنت طفلاً رأيت مترات بين يدي البنـاء أو بـين يـدي الخيـاط الـذي كـان عنـد بدايـة كـل سـنة دراسـية يخـيط لي المئـزر والسـروال . هـذا المـتر اشـتريته مـن دكـان بتسـعة فرنكـات وتسـعين سـنتيما . احتفظت بالتذكرة ، أحتفظ بها دائما . يجب الاحتفاظ بتذكرة الدكان حتى ولو أننا في الحافلة . زد على ذلك أن رجل الأمن لهذا الدكان لم يغفل عني . أعرف أنه هـو أيضـا لا ينظـر إلي إلا للـرأس . اقتنعـت بـأنهم علـى حـق ، شـيء غـير عـادي في رأسي ، ولهذا اشتريت هذا المتر . هذا المساء ، لا أخفي عنكم ، أخذت كل قياسـات رأسـي ، في كل الاتجاهـات ، مـن اللحيـة حتـى القفـا ، مـن الأذن اليمنـى إلى الأذن اليسرى ، تحققت من قياساتي بدقة . بيننا ، لقد وجدت رأسي كبيراً نوعـاً مـا ، إذاً المرأة التي تسمى كاتي كانت على حق ، في اليوم التـالي اشـتريت طاقيـة مـن نـوع نايك ، لأخفي رأسي ، ما أن دخلت إلى مكتبي ، تأملتني عينا كاتي . قلـت لمرطان - عفـواً يسـمى أزيـن - ، المكلَّـف بالبريـد والإنترنيـت : «إن الجـو بـارد .» لم يكـن صـحيحاً ، كنت أبحث عن شـخص لأوجـه إليـه الكـلام . فقـط هـي طريقـة لتحريك اللسان في الفم ، هكذا !

على صفحة الأعمال المختلفة ليومية جهوية ، أقرأ : «في أعلى وهـران ، اكتشـف الجيش الجزائري ثلاثاً وخمسين جثة امرأة ، في حالة تحلل ، مرمية في بئر ناشف .»

كانـت كـارين تـتكلم في الهـاتف . مـديرة لـي ظهرهـا . اكتشـفت فيهـا أنوثـة وجاذبيـة . إنهـا هيفـاء وفـرع ليلـك ، إنهـا تشـبه نسـاء الإشـهار . كانـت تـتكلم

بالإسبانية ، بوجهها الذي أتصوره ، أحمر ، والذي بدأت ملامحه تأخذ شيئاً فشيئاً بسمة عريضة ، طفولية وواضحة :

«Qué tal?

-Un libro de filosofia

-Bueno ، Bueno…

-Hasta la vesta ، mi amigo . »

أقفلت كارين الهاتف . لحظة صمت . استدارت نحوي . نظرت إلي . هذه المرة كارين أو نوبة ، لا يهم ، نظرت في أعماق عيني . إنها المرة الأولى في هذا الدير التي ينسى فيها شخص ما راسي ، هذه الغلطة الكبيرة ، هذه الزبالة المنتصبة بين كتفي .

في المساء ، وحيداً في الغرفة المرتفعة المطلية بالبياض التي أشغلها منذ وصولي إلى هذا البلد ، إنها إذاً ، خمسة أشهر ، والتي كانت فيما مضى مسكونة بالحمام أو بشيخ البحر ، مرة أخرى ، نظرت في المرآة ، لا أريد قياس رأسي . نظرت في عيني . أنا متعب .

ألقيت نظرة باردة على سريري الذي يشبه صحراء بلا حدود . أخرجت قنينة نبيذ بأربعة فرنكات وخمسة وسبعين سنتيما . نبيذ مائدة رديء ، لاسيتليل ، حضرت مائدتي : صحن صغير من الجزر ، زيتون أسود ، رأس سلاطة أخضر وفتحت علبة سردين بصلصة الطماطم . تذكرت سهرات بيروت وأصدقائي المناضلين في المقاومة اللبنانية ، وأولئك الذين ينتمون إلى مختلف الجنسيات والديانات ، ويهود وكوبيون ومسلمون وفرنسيون وأميركيون ومسيحيون . افكر ، لا أدري لماذا ، في

صديقي صمويل ناشف الذي يسكن منذ نصف قرن مع اثني عشر قطاً فوق سطح عمارة قديمة في دمشق .

ليس هناك نساء بين أغطيتي الوردية التي تستبدلها كل يوم ثلاثاء المرأة العجوز التابعة لمصلحة التبييض للبلدية ، كنت أكتب يومياتي وكنت أتلهى بالرسائل . لا أخفي عنكم فأنا غيور . لا تعرفون ماذا تعني النار المحتدمة لغيرة الذكور . نعم أنا غيور تماماً من هذه الأخوات وهؤلاء الإخوة الذين لهم الشجاعة ليكتبوا أخطاءهم ، خطاياهم ورغباتهم وفرحهم ، إن الله الغفور سيغفر لهم ، للجميع :

ها أنا مرمي كقربان بقلب بداوة أو منفى بلا نهاية ولا قعر .

صمت فرح مكتوم

عندما ، أرفع عيني نحو الأعلى في الخامسة مساء في الصيف ولا أجد السماء ، أخفض العينين وبتأن أهبط في قنينة خمري .

بصوت عال أصرخ وأصرخ :

أحيانا أشعر أني مسكون بهذا الشعور الغريب الذي يخلط في داخلي وأمام عيني صورة زوجتي في صورة أختي . وأمام هذه الصورة ، لا أستطيع ولأيام لا بل لشهور أن ألج لحمها الذي يتغير لون جلده حسب الفصول وحسب درجة الرغبة الجنسية . ليال طويلة وجبلية ، أبقى ساكناً ومتجمداً أمام الرائحة الجسدية لأختي أو لأمي . في هذه اللحظة ، يظهر لي الجنس بأنه خيانة أساسية لحليب الأمومة . في هذا المساء ، بدأت زوجتي شيئاً فشيئاً تأخذ في نفسي مكان أختي ، وتجعلني عاجزاً وبارداً . أعوض عطشي الجنسي بعطش آخر ليس سوى الخمر . أفتح قنينة ، ببطء يزبد الخمر في الكأس . أسكن ليلي . كنت في اليوم التالي ، حزيناً ، مهموماً ، لا أحب إلا زيارة الأروقة الستة لمعارض الفن التشكيلي أو مشاهدة فيلم إيطالي مبرمج في متحف السينما الذي تتلف قاعته يوماً بعد يوم ، الطوبينات السوداء والرمادية بشواربها الطويلة تقرض الشاشة والأرائك التي يرجع تاريخها إلى الحقبة الاستعمارية .

باستثناء هذه اللحظات النادرة للرغبة التي تلي الليالي الكابوسية لمناوبة المستشفى الجامعي في وهران ، نوبة لا تظهر أي ذوق ، ولا أي رغبة جنسية . كانت تقضي وقتها في تنظيف نفسها ، وقراءة الفلسفة الهندية ، غامسة لساعات وساعات رأسها الصغير في المجلدات المغلفة بجلد العاج الأحمر ، أو تحضير محاضراتها في علم أمراض النساء لطلبتها . أنا متيقن من أنه بسبب هذه المجلدات المخيفة وبسبب هذه المحاضرات في علم أمراض النساء حيث الأجزاء الحميمية للجسد الأنثوي تفقد غموضها وشاعريتها التي تثير الفضول الإنساني كله ، أصبحت نوبة غير مبالية بالجنس .

في خلسة ، أقرأ يومياتها الليلية المكتوبة في كاليغرافية استيهامية وجميلة ، دائما بفضل قلم الريشة ذاته وبالحبر الأخضر ، حيث تسجل في آخر كل صفحة الساعة ذاتها «الواحدة وعشرون دقيقة» . مئات الصفحات بمربعات مملوءة بأشياء تدعو إلى الفضول ... تفاصيل دقيقة : أسماء المرضى ، مواعيد الفحوصات ، قصائد بالعربية ، وأخرى بالإسبانية ، نوطة الصولفيج ، كلمات أغاني ابن قسنطينة ، إنريكو ماسياس ، التي تحبها كثيراً ، وكلمات أغاني المغنية اللبنانية فيروز ، مقاطع نصوص فلسفية حول جمال الجسم الإنساني ، وعلم جمال الجنس ...

أتكئ بمرفقي على النافذة وأقول : « منذ سبع سنوات ، لم أعرف كيف ألهب جسدها . هذا المساء سأحاول مرة أخرى » ومثل الليالي السابقة ، ولساعات وساعات ، وجها لوجه ننسى في أماكننا وفي لغتنا ، أولئك الذين لا يوجدون إلا في رؤوسنا ، ونتحدث عن الأصدقاء الذين اغتيلوا والذين هم في المنفى .

فجـأة ، ارتجلـت بـالعود موسـيقى ، وهـذا مـا يسـاعدني علـى الالتحـاق بأصدقائي الذين اختفوا .

نامت ، لا أعرف كيف وصلت إلى أن تغط في هذا النوم العميق ، لتجد نفسها بسرعة في يقظة لا مثيل لها . ها أنا أمام هذا الشيء الجميل والغائب . أرتشف جرعة خمري مفصلاً ملامحها ومدخناً نهديها في عري وردي مثل لون كأسي .

لم تعد نوبة تحلم . منذ اختطاف نوبة الأخرى ، أختي ، وهي لا ترى إلا الكوابيس وتسارع في الصباح لتحكيها لي : أجساد أناس بلا رؤوس ، رؤوس بلا أجساد ، نساء حوامل يلدن أطفالاً بلحى ، أقراط تدمي الآذان الإنسانية ملفوفة حول رقاب بعض الأزواج المتعبين ، مدن من رماد ودخان ، شابات مختطفات وهاويات وورطات وكلاب ضالة ونابحة ، صارخات بأصواتها الحادة ، خانقة ومختنقة ، وأخيراً ، خاصة ، صورة هذا الإمام الشاب طالب في معهد الطب قديما والمريض بالجنسية الطفلية .

بما أن نوبة تعرف جيداً أني رجل غيور ، تظهر أنها تنزعج من حكايتها لي عن الدرس الذي كان يعطيه لها هذا الإمام عندما كانا طالبين في أثناء الإقامة في الحي الجامعي . لم يتوقف عن إرسال قصائد الغزل منسوخة بخط ممزوج بين الكوفي والفارسي . نصوص جميلة مأخوذة من ديوان نزار قباني ، الشاعر العربي المعاصر المشهور . ولم يكن يتردد في إلصاق اسمه في آخر كل قصيدة .

بعد مدة ، تكتب نوبة في يومياتها ، غير الإمام اختيار النصوص ، مفضلاً إرسال السور القرآنية وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم- استشهادات إلهية ونبوية حول المرأة ، والحب والجنس . على خطى المؤمنين المتقين ، لم ينس أبداً

استهلال رسائله المكتوبة أيام الجمعة ، أيام الجمعة فقط : ببسم الله الرحمن الرحيم ، التعبير الذي نجده في بداية كل السور القرآنية .

ككل يوم جمعة يوم صلاة الجمعة عند المسلمين- أنا وزوجتي نفضل تناول وجبة الغذاء في الشرفة ، نتذوق الكسكسى المحضر بالخضر ، واللحم المشبّع بصلصة النبيذ . كانت الشتائم من جمر وشعل من خطاب أخلاقي مضجر ومهيج بلغة عربية فصحى تسقط فوق رؤوسنا ، ضد الديمقراطية ، والنساء المتبرجات ، ضد الشيوعيين والفنانين . يأتي الصوت من ثلاثة عشر مكبراً للصوت ، المنصوبة فوق سطوح العمارات المجاورة وأيضا فوق قمة صومعة مسجد وهران العتيق المشيد في الحقبة العثمانية .

أتأمل وجهها الوردي بالكاد مذهب ، منفتح نحو الأعلى : «غداً يوم جديد . » صمت ، نوبة ، العينان مخفيتان وراء نظارة شمس سوداء ، نظرتها حادة ، شرهة وفارغة ، تتابع الخطاب الأخلاقي المضجر محركة بين الفينة والأخرى الرأس ، مدخنة سيجارتها في هدوء ، وشاربة بشراهة كبيرة كأس هذا النبيذ العتيق المهدى من قبل صديقنا وحيد ، الذي اشتراه من قبو قرب عين تموشنت ، منطقة استعمارية سابقاً معروفة بكرومها وبزارعيها ، وبخمرها وأقبيتها المستوحاة من الكاتدرائيات الكاثوليكية والمساجد الأندلسية .

أن تشرب كأساً قلبه يسيل من النور ، لأجل من يبقون أصدقاء ، ولحب الأمهات ، فإن ذلك لأعظم سعادة .

ضَعُفَ كثيرمن الرجال أنهم

لا يعرفون كيف يصبحون حجارة أو شجرة .

(انا غركي)[1]

عندما تزورني كارين ، لتستمع لبعض قصص الحب ، والمعاناة والجنس المسجلة في دفاتر الأخوات والإخوة . نشرب الخمر ، بل ماء الحياة ، التي تفضلها كارين ، ونقرأ دفاتر مملوءة بالخطايا وأسماء للأعضاء الحميمية والحكايات التي تجري تحت أقواس دير آدم ، تحت عين الله الذي لا ينام .

عندما أحمل خمرتي في قنينتها البلاستيكية ، أتجمد . عندما أشرب الخمر مباشرة من القنينة ، أجد لساني ميتا ، أغزل الكلمات كما يغزل الصوف ، وكما تزل الأيام .

هذا المساء سأقرأ لها وأترجم بعض صفحات مخطوط بالعربية ، وجد في قبر حيث دفن رجل يسمى مسعوداً مع فرسه المسرج جنباً إلى جنب . هو أيضاً اسمه مسعود مثلي ، مثل أبي وجدي ومثل خالي . من جهة أخرى فإن فرقة بحث أركيولوجية الجنائز ، تحت رئاسة هابيل ، بسرعة نبهت الوالي ورئيس بلدية هذه المدينة ووزارة الداخلية . تبعاً لهذا الاكتشاف الشيطاني – عربي مدفون في كنيسة مع فرسه ودفتر يومياته – ، استدعى رئيس البلدية مجلس إدارته ،

1 – انا غركي شاعرة المقاومة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي . (N . d . A).

المكون من أغلبية المحامين والأطباء المتقاعدين ، من أجل جمعية استثنائية ، طالباً تجميد الاعتماد المالي لبحوث وأركيولوجية الجنائز واستبدال الفرقة الحالية بأخرى .

تحب كارين أن أقرأ لها النص في لغته الأصلية ، عربية مملوءة بالأمازيغية والعبرية . قلت لكارين : «أنا أمازيغي من ناحية أمي وتعلمت العبرية في الجامعة الجزائرية ، قبل أن يستبدلوها بالفارسية .»

أحفظ عن ظهر قلب ، بالفارسية هذه القصيدة لعمر الخيام :

اشرب المدام ، تحت الأرض ستنام يوماً ما .

بلا رفيق ، وبلا امرأة بين ذراعيك ،

لا تقل لأحد هذا السر العظيم :

الخشخاش الذابل المنثور لن يزهر أبداً .

هكذا يبدأ المخطوط الذي عهدته إلي كارين هذا الصباح لأول ثلاثاء من شهر شباط 1996 :

«أنا خادمك . أنا خادمك وخادم الله ، أسمى مسعود بن علي بن مسعود الأكبر بن طارق بن إلياس بن يعقوب بن هزار بن جرين بن فاطمة بنت يعقوب بن ماريا بنت عبد الله . أتوجه إلى المرآة بعينين مغمضتين وأرى ذاتي كما أنا . كانت أمي تقول لي : "بني لك شكل السحاب . «حولي لا يوجد إلا زليغات مشتراة من فاس أو غرناطة . ولدت في هذه الغرفة التي تشبه القبر ، إنه ميلادي الثاني . ها هنا ، تحت مكان الله هذا ، حيث تحت هذا السقف ذاته تعبد الديانات الثلاث : الإسلام ، اليهودية والمسيحية ، الرابعة تتم بسرية ، التي حملها إلي ريح حتى الحياة .»

صفحة غير مقروءة... قلبت الصفحة وواصلت.

خمر.

«مساء موته الذي ينتظره منذ ثلاثة رمضانات وثلاثة مواسم حج، بقربه على يمينه رجل الخرائط، يهودي من تلمسان يسمى ابن حوقل، رجل لا يتعدى طوله متراً وثلاثة وأربعين سنتمتراً، عيناه المتقدتان مخفيتان وراء نظارتين مربوطتين في العنق بخيط أخضر من الحرير متسخ. إنه مالك كل حقول التوت والمكتبات الخمس الكبرى للمنطقة. إنه أيضا مالك للمسجد الذي يؤجره للمؤمنين لإتمام صلوات الجمعة، والتراويح وصلوات الأعياد الدينية الإسلامية. كان المسجد مجهزاً بمكبر صوت بالبطاريات، وبمكتبة فيها نسختان من القرآن الكريم، وبكتاب حول سيرة الأنبياء والرسل، وفي الأيام الأخيرة يستعمل جزء من المسجد لتخزين الخراج من القمح، من عند مسعود الأكبر، من كل أراضيه التي داستها حوافره الحديدية. على الأرض البرديات وجلد الأبقار والمعز، ملوية بعناية. مبسوطة على الطاولة البيضاوية بأرجل من الجلد، المنيرتان المنصوبة في وسط هذه الغرفة من خمسين متر مربع تقريبا، أين يستمع مسعود الأكبر لتفسيرات خرائطيه ويسلم لربه الروح ببطء، دون أن يفقد لا الوعي ولا اعتقاد المؤمن الكبير. على الطاولة البيضاوية، يعرض خارطة كبيرة مملوءة بالأسهم والألوان التي تتقاطع.»

عندما دخلت المرأة بسروال الجينز المرقع، ككل صباح، بكيس مملوء بالعظام بين اليدين، كنت أخفي المخطوط في غلاف لمجلد كبير للموثق المشهور لمدينة البرد والجبن والأرانب والحشيش هذه.

أنا أيضا أسمى مسعود: مسعود بن مسعودة،

«ابن حوقل الخرائطي قيلولي جيد، يحب الليل في عز النهار. عندما تكون الشمس في كبد السماء الزرقاء، نازلة عموديا على رؤوس المؤمنين، يرفع مسعود العينين نحو خرائطيه، دون أن ينبس بكلمة ولا يهمس ببنت شفة، هذا الأخير ينسحب لينام القيلولة.»

« يشرح ابن حوقل لمسعود بأنه بعد ثلاثة أيام وأربع ليال على فرس سيبلغون قرية تسمى بلعباس. باب العسة، أو باب النساء، يوجد على عتبة البحر، يسمى "بحر الجراد"، في ملتقى الطرق الخمس الأساسية، التي يذكرها الجغرافيون والرحالة المشهورون بتوليمي (القرن الثاني)، ماجيلان (1480ـ1521) وابن بطوطة (1304ـ 1377): طريق الملح آتية من هرار، طريق القطن آتية من نيل السودان، طريق التوابل آتية من مالي، طريق الحشيش آتية من كتامة وأخيراً طريق المخطوطات آتية من نواكشوط، هذه الأخيرة، أيضاً هي طريق دودة القز. أسياد هذه الطرق الخمس، محاطون بفرسانهم، يمشون تحت بيرق، التقاليد الجمعة، يلتقون مرة كل سنة قمرية، في العاشر من ذي الحجة، يوم الخروف، يوم التضحية عند أبناء إبراهيم عليه السلام. الأسياد الخمسة الكبار يحيون عيد الدم الديني هذا المتنازع عليه منذ خمسة عشر قرناً بين المسلمين واليهود.»

أرفع بصري عن المخطوط ولا أجد إلا نظرة هذه المرأة بسروال الجينز المرقع مطبقة على رأسي. فجأة، تحررت من نظرة المرأة التي تشبه صورة غلاف مجلة قد قرأتها معلقة عند مدخل كشك في قاعة انتظار إحدى المحطات. شعرت أني حظيت

بقهقهــة : أمــي مســعودة ، عيناهــا علــى الملصــقة الجميلــة لبرجيــت باردو أو على شيلا ، تسألني :

« من تكون هذه الرومية ؟»

أجبت أمي :

«إنها ليست رومية ، إنها جميلة بوحيرد »

وأمي : «لكن من تكون جميلة بوحيرد ؟»

أمي إنها أكبر بطلة في الثورة الجزائرية ، مقاومة ومؤمنة كبيرة في سبيل الإسلام »

أمي تحني رأسها وتقول : «ليحفظك الله في عينه وظله »

كانت لي غرفة جدرانها مغطاة بملصقات السينما : كاترين دو نوف في مظلات شربورغ وفي امرأة المسيسبي الفاتنة ، إيزابيل أدجاني في الصفعة ، عبد الحليم حافظ..

«الخرائطي ، منتعلا بَلْغَةً فاسية صفراء ، على وجهه انعكاس جزء صغير من السماء محمر في منتصف النهار ينسحب دون أن ينسى بيبة حشيشه ، ليستسلم للقيلولة المقدسة . يأخذ البياتي الموسيقي الأعمى ذو البنية القوية حافة سرير مسعود مكان حوقل . كعادته اليومية ، يبدأ الموسيقي الخادم بعزف مقامه المفضل بالعود ، النهوند ، ثم ينشد قصيدة من مائة وسبعة أبيات (عدد الأبيات يناسب عدد أجداد مسعود الأكبر الذي يظهر اسمه في الشجرة السلالية ويرجع إلى علي بن أبي طالب ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم) ، ويحكي نكتته : يا سيدي فليحفظك الله من العين الحاسدة من عين الشيطان والعدو . ولدت في بلد حيث يُحْكَمُ على المكفوفين أن يعيشوا وحدهم . بلد حيث

السلطان وكل السكان ، شعب خاضع ومؤمن ، يفكر بأن مكفوفا لن يلد إلا سلالة مكفوفة مثله . سيدي–ليحفظك الله من العين السيئة ومن منافسيك وأعدائك– في هذا البلد أحببت امرأة رأت عاهتي ، ورفضتني . مصعوقاً بحبها طلبت مقابلة السلطان لأشرح له أني لست معاقاً . بعد ستة أشهر واثنين وعشرين يوماً من الانتظار– لا يستقبل السلطان أحداً إلا مرة في السنة ، في ليلة رمضان المقدسة ، الليلة السابعة والعشرين من شهر رمضان– قبل طلبي . لقد كنت سعيداً لمقابلة سلطاننا ظل الله على الأرض ، الذي نقول عنه إن له عيناً كبيرة في الظهر ، عين الأنبياء والرسل . وأنا مقود في بهو السلطان كنت أبحث عن لساني . بصوت عنيف ومرتفع كان المنادي رجلاً قوياً بهندام جميل يعلن قدومي . لحظة من الصمت ، رفع الستار والسلطان الذي له عين في الظهر وجه إلي الكلام :

«أنت المكفوف ، ليحفظك الله ، هل تريد تغيير القوانين الموضوعة منذ ليل الوقت في إمارتنا ؟»

أجبت :

مولاي ، ليحفظك الله ويحفظ إمارتك من أعين الأعداء الذين يترصدونك على البحر مثل الرمل ، صحيح أنا أعمى ، لكني أقسم لك يا سيدي أن جنسي يرى . لم يتأخر في الانقضاض على عنقي كان يريد خنقي ، لكن السلطان – ليحفظه الله في ظله الرباني - رفع صوته الهادئ والرحيم :

دعه !

هذه المرة ، استطعت أن أميز حتى لون عينيه ! ! !

ثم بنبرة أخرى ، السلطان الذي يملك عين الأنبياء والمبشرين الكبيرة في ظهره ، يوجه إلي للمرة الثانية الكلام :

«هل تستطيع أن تؤكد لي ذلك ؟»

«"مولاي – ليحفظك الله – اسمح لي بأن أتزوج هذه المرأة ، والدليل سيكون بين أيديكم بعد تسعة أشهر من الزواج ."هكذا يا مولاي – ليحفظك الله من أعين أعدائك – ، استقبلني السلطان تسعة أشهر وثلاثة أيام من بعد ، مصحوباً بزوجتي وفي يديها توأمان مميزان هما طفلان . ومنذ هذا التاريخ ، ألغى السلطان القانون الذي يمنع العميان من الزواج . لكن مولاي – ليحفظك الله في جانبه الرحيم – ، بمجرد أن رأى السلطان زوجتي ، رأى مشيتها كالرقصة ، وحسنها ورائحتها ، وقع في غرامها ، متحمساً بانفعال ليس له مثيل ، وخلال ستة أشهر كانت في حريمه . ليسامح الله العظيم كل المؤمنين والمؤمنات . انسحب الموسيقي . بعد أن عزف مقاماً ثانيا هو مقام سيكا ، ليس هذا وقت القيلولة الآن . . .» .

نوبة ، هي أيضا تحب الحكايات والعطور .

ورطة امرأة شمسية

كان يباباً وخراباً دير آدم ، أين استقبلت منذ أن غادرت مدينتي بدا لعيني مثل مصحة نفسية ، مغلق علي في علبة سردين ضخمة . كانت روائح السجائر ، روائح عظام الموتى والمخطوطات وصوت هابيل ، رئيس فرقة البحث الأركيولوجي المأتمي ، الذي لا يتوقف عن الصراخ بأوامره للمرأة بسروال الجينز المرقع ، التي لا تفارق السيجارة شفتيها المائلتين إلى الزرقة أبدا ، كل هذا يثير فيّ الرغبة في التقيؤ والانطلاق في درب ليس له نهاية .

وحدها كارين ، بمجرد أن تعبر الممر الفاصل للمكاتب التسعة ، تترك وراءها نفحات عطر مشتق من لب البرتقال .

هذا المساء ، كعادتي ، عندما لا تكون لدي امرأة بين الأغطية الوردية المستبدلة كل يوم ثلاثاء من قبل مصلحة تنظيف البلدية ، كنت أكتب ـ لم أعد أشتهي النساء كما كنت من قبل . أحاول أن أرسم مدينتي وأستجوب رجال الحي ، هنا حيث تركت ظلي ، ورائحتي وأصدقائي ، الذين هم في الأرض وأولئك الذين ما زالوا يمشون على الأرض ، كتبت هذا المساء :

اليوم ، وبعد خمس عشرة سنة من المعالجة الطبية ، وبلا نتيجة كبيرة ، قرر الجراح أن يجري عملية لمليك . كانت منذ شهرين ، بل تسعة وأربعون يوما . نوبة ، التي تعرف جيداً عالم المستشفيات المرعب ، هادئة . لم تتوقف عن التحدث

إلي ، منذ ثلاثة أيام وثلاث ليال ، عن وليام بوروش ، وعن روايته المأدبة العارية التي قرأتها ، وعن القوة وعن شجاعة الكتابة . لم أعتقد أبداً أن نوبة تملك هذه الرؤية النقدية والتحليلية . تقرأ الروايات والكتب الفلسفية كالعبادة .

أنا لا أمنح ثقتي للجراحين ولا للآلات ولا للمستخدمين شبه الطبيين . منذ الإعلان عن هذه العملية ، لم أتوقف عن مضاعفة شربي للخمر ، والتحدث هاتفياً إلى أشخاص ، هكذا ، أسماؤهم على مذكرتي المزقة . أنا قلق .

نوبة ، بفضل قدر ملون ، على كتاب طبي كبير أوراقه لماعة ومصقولة بعناية ، حيث نرى بطن صبي مفتوحاً أمعاؤه مرسومة بدقة ، تحاول طمأنتي : العملية التي تجرى لطفلنا ستكون بسيطة ، ثلاثة أرباع الأطفال الذكور يولدون بهذا التشوه المسمى «ضيق فم المعدة» .

قالت لي نوبة : «تشوه الولادة هذا اكتشفه الإغريق» .

غفلت .

سكبت كأساً من الخمر . ينبعث من الجدران البيض لهذا البيت المرتفع الخوف والبكاء . أسمع أصواتاً ، صراخاً ، ضحكاً وفجأة : سربُ حمام ، غمامٌ من الأجنحة يغزو الفضاء ثم جماعة من النساء بأثواب دينية سود يخرجن من بياض الجدار . يخلعن ملابسهن . عاريات ، لاحظت أن عانات فروجهن بل ثغورهن ملفتة للنظر . عدت إلى سريري ، في صمته هذا الشيء الذي يشبه قبراً بلا شاهدة مرمياً في مقبرة مهجورة .

صلاة على الجندي المجهول .

رأيت نفسي في طريق بدا لي أنه تمدد إلى ما لا نهاية ، إلى صمت لا ينتهي .

في الأسبوع المنصرم ، استيقظت وهران على رعب جديد . فكرت في سرفانتس .

في الجناح رقم أربعة عشر ، جناح العمليات الجراحية ، في المستشفى الجامعي ، اغتال طبيب زميله وأربعة مواطنين آخرين ناجين من مجزرة اقترفت في ضيعة صغيرة في ضواحي مدينة تلمسان ، قبل أنْ يفرّ في سيارة إسعاف قادته إلى مدخل غابة مسيلة ، المتاخمة للمدينة ، حيث تتخندق الجماعات الإسلامية المسلحة ، كتيبة الموت .

من هنا ، من هذه الشرفة المدوخة ، أشعر بأن أعيناً سامة تتفرسني :

تكتكة ، رجل وحيد الساق ، عكازه من مطاط بال ، يعبر الشارع السفلي ، الذي كان يسمى قديماً شارع ألاساك لورين .

أكره هذه المستشفيات التي كان أغلبها في وقت الاستعمار ثكنات ، سجوناً أو معتقلات : الروائح النتنة ، الأغطية المتسخة والأسرة الحديدية القديمة لمراقد الجيوش الاستعمارية ، والمغاسل المقفلة بقيء المرضى وصراخ الصبية ، والصياح في مصلحة الاستعجالات ، والضمادات الملطخة بالدم المرمية في القمامات بلا أغطية ، والكلاب الضالة الممدة تحت ظل الأشجار ، والقطط التي تموء من الجوع مهددة المواليد الجدد في جناح الأمومة ، والشيوخ المدخنون خلسة من وراء أطبائهم والممرضات الشابات اللواتي لا يخفين رغبتهن في مضاجعة النزلاء وأيضا مع بعض المرضى الذين ما زال باستطاعة ذكورهم الانتصاب ، الأمهات العازبات اللاتي يهجرن صغارهن ، وممرضات أخريات أكبر سناً من سواهن لم يتوقفن عن «مص» دم المرضى لبيعه لعيادات محلية خاصة ، أو لإرسالها إلى الخارج . يدور الحديث أكثر فأكثر عن عصابة منظمة

ومبنية جيدا ، مكونة من الجيش ومن رجال ونساء أعمال . شبكة مختصة في تهريب دم الإنسان . الدم بيع في مستشفيات إسبانية ، إيطالية ، فرنسية ومستشفيات أخرى .

نعيش في دولة منتجة ومصدرة للغاز والبترول والدم الإنساني .

أعرف جزائرياً يمضي كل سنة عطلة لمدة خمسة عشر يوماً في إسبانيا في فندق من فئة نجمتين ، ببيعه دمه A+ لمخبر بحث جامعي .

كانت أمي تقول لي : «لنا دم ساخن .» لم أستطع فهم ذلك أبدا .

لا أعرف لماذا ، أفكر في هذه اللحظة في المسؤولين السارقين للحم الأحمر أو الأبيض ، سارقي الفواكه والحلويات الموجهة للمرضى الداخليين .

عطيل ، الغيور

نامت ، لا أعرف كيف وصلت إلى أن تغط في هذا النوم العميق ، لتجد نفسها بسرعة في يقظة ليس لها مثيلٌ . ها أنا أمام هذا الشيء الجميل والغائب . أرتشف جرعة خمري مفصلاً ملامحها ومدخناً نهديها في عري وردي مثل لون كأسي .

«حوقل ، منذ خمس سنوات ، لم يتوقف عن البحث في كتبه ومخطوطاته ، هذه الكتابات بالعربية والعبرية ، وفي أوراقه ، وأوراق الأرض والصحراء والبحار والمحيطات ، المكان الذي يحلم به مسعود كقبر . مسعود الأكبر ، منذ أن غادر بوجي مطروداً من قبل الأشرار وثعالب بغداد، انشغل بموته . يريد أن يعيش حياته حيا . لقد كلف واضع خرائطه ليبحث له عن أرض للقبر ، الأرض حيث يمكن أن يشم فيها رائحة أشجار ميموزا بونوا ، ويسمع عزف العود الأندلسي وأن ينام القيلولة في ظل مثيل لظل أقواس المسجد العتيق بتلمسان . هكذا يتقدم منذ ستة وثلاثين شهراً ، الغزوة الموجهة من قبل هذا الخرائطي ، بوصلة في اليد ، أحياناً نحو الغرب ، وأحياناً نحو شمال بحر الجراد . رغم الحروب وحوالي مئات من القتلى الذين سقطوا على مدى طول الطريق وعرض البحار ، مسعود الأكبر ككل أيام الجمعة في الوقت الذي تكون فيه الشمس عمودية على عرف الخيول السبعة التي جنسها [أكره هذه الكلمة] نبيل

ودمها أصيل : فرس العرب ، المغرب ، القرقيز ، الفرس ، الترك ، المنغوليين ، السرقيزيين ، التي يملكها شيوخ القبائل السبعة الذين يرافقونه منذ أن غادر باب إنقاذ بوجيو رفع مسعود الأكبر رأسه الملون بالحناء المعتبرة ، سريره الإمبراطوري محمول على صهوة فرس أصيل ، شريف ونبوي . إذا حلت ساعتي قبل أن أبلغ المكان ، ادفنوني على ظهر فرسي ، صلوا على جسدي المغسول سبع مرات صلاة الجنازة ، أطلقوا سراح فرسي أطلقوا له العنان واتركوه يسير في أرض الله »

أنا متيقن من أن مسعود الأكبر ، كأسلافه ، جده وأب جده وجد جده ، كل هؤلاء المذكورين في الرسم التيهي لشجرة السلالة ، كانوا يحلمون بأن يموتوا في معركة ، خلال قيلولة أو بين فخذي امرأة جميلة وككل الأسلاف ليس هناك إلا وصية واحدة : أن يدفن مع فرسه في المقبرة ذاتها ، في القبر ذاته .

مسعود الأكبر يفكر في الجميع لا شيء يفوته . منذ خمس سنوات قدم له المهندس المعماري المسيحي السيد طوماس دو طولير ، سليل الفيلسوف والطبيب ، موسي الميموني (1135ـ1204) ، رسماً لمخطط معماري : غرفة فرعونية على شكل هرم ، محفورة بعمق مائة واثنين وخمسين متراً ، جدرانها من الزليج بزخارف موريسكية نسخ عليها سبع آيات من القرآن الكريم ، وأيضاً قصائد طويلة من شعر أبي نواس الشاذ جنسياً (813.762) والشاعر الصوفي بن عربي (1241.1165) ، صرح السيد طوماس بأنها غرفة حيث يستطيع أن يحلم الموتى .

أنصت إلى الطلى

هذا المساء ، لم تأت كارين ، إذاً فأنا وحيد في هذا البيت المرتفع . وعندما أكون بمفردي ، وحيداً ، أرمي غطاء على رزمة الملصقات المملوءة بأخبار الكتاب المغتالين في المغرب والعالم العربي . هذه الرزم من الملصقات الشبيهة بشواهد القبور فهي على الأقل تقتل في لذة الخمر ومذاق اللوز المملح الشهي . منذ أسبوع ، قررت أن أبدأ أول كتابة لهذا المشروع لقاموس بعنوان : القاموس المعاصر للباحثين في المغرب والعالم العربي .

أبحث عن كارين ، ولا أجد سوى الخمر الإسباني رخيص الثمن وصوت نوا الخرافي منبعثاً من مذياع صغير . أدخل في جهنم الليل . في حالة سرنمية ، أنفخ بقوة على جمر الرسائل ، وتستيقظ الرسائل على شكل كائنات حية ، أفاعٍ . وأنا الحاوي .

مجلدات لينين الخمسة والعشرون من مطبوعات دار التقدم في موسكو ، موضوعة على رفوف المكتبة ، طبقات متراكمة من الغبار .

أرغب في كتابة نص ، « *مدح موسكو* » . المدينة التي حلمت طويلا بزيارتها . هذا ما لم أحققه .

موسكو لينين الميت .

على قناة تلفزيونية إيطالية أو تركية ، كان ميخائيل جورباتشوف ، رجل البرسترويكا ، آخر رؤساء الاتحاد السوفياتي ، يقوم

بإشـهار بيتـزا . منـذ تلـك الليلـة لم أذق البيتـزا أبـداً . أحلـم دائمـاً بالشـيوعية : الخبز والخمر للجميع .

قالت لي نوبة : «ما أنت إلا طفل ، ما أنت إلا شاعر حالم !»

... نهار هذه المدينة المنسية يمتد بإيقاعات الأعمال الصغيرة والمجازر . من هـذه الشـرفة أتـابع باهتمـام سلسـلة مـن حـوالي عشـرة أطفـال صـغار يتـدافعون ويتعـاركون لصـب المـاء في صـفائح مكدسـة صـدئة ، مـن صـنبور الحـي الوحيـد والأخير ، أو أيضاً ، ماء بلون الترابِ يسيل شحيحاً . طفل يقبل طفلة ، آخر يضـم إلى صدره الجسد النحيف لصـديقته الطويلـة ، إنـه عنيـف هـذا الطفـل ، وللصـبايا حرارتهن .

أفكر في سرفانتس الذي كان يتجول قديماً في هذا المكان .

مثله ، ولدت لتيه .

على الرصـيف متسـول يحمل ذقنه في يده ، هكذا . الطلقـات الآليـة لم تعـد تخيف الأطفال ! أحدهم يعلق باسماً : «المفرقعات !» يجيب الثانـي : «البارود»

أشعر بنفسي جافاً مثل الخشب . خفت على مصير ابننا الـذي سـتجرى له عملية جراحية اليوم .

أحقد حقداً كبيراً على جورباتشـوف . أكره أيضـاً المعـاجم الطبيـة ، الكتـب والمجـلات حـول الأدويـة الـتي تحـب زوجـتي الاحتفـاظ بهـا ، والاعتنـاء بهـا بشـكل كبير ، والمنظمـة جيـداً علـى رفـوف مـن خشـب محفوظـة مـن الرطوبـة بدقـة ، قـرب سـريرنا . هـذه الوثـائق تـرعبني وتجعلـني مسـرنماً . مـرات عـدة ، دون أن أشـعر وجدت نفسـي وحيداً ، في لباس النوم ، في الشـارع ، في كل العطل . عطل الربيـع ورأس السـنة ، عطلـة الربيـع أو الصـيف ، أشـعر بفرحـة عارمـة وأنـا أصـففها في

العلبة الكرتونية الكبيرة لجهاز التلفزيون من نوع صابا . أتحرر من العين الملعونة لهذه الوثائق وأنا أضعها في ظلام ركن المهملات الندي الذي مصباحه يبقى غير صالح على مدار السنة فوق السطح . دون أن أشم رائحة الطاعون الجيدة ولا التفكير في جورباتشوف ، الذي لصوته رائحة الأرجل بوحمته الحمراء على جبينه وبيتزته الأمريكية .

ذهبت نوبة إلى المستشفى . قالت لي إنها تفضل قضاء الليل قرب مليك ، دون أن تنسى أن تحمل له فرسه البلاستيكي ذا الأربع عجلات . لمليك تسعة وأربعون يوماً ، كجده يحب الكلاب والخيل . إنهم في عيني الحيوانات الأكثر وفاء . خرجت ، غزالتي ، تسحب بهدوء الباب الذي يحدث مفصلاه صريراً حاداً . على كرّاسي الصغير ، أسجل :

نكهتها تفوح منها رائحة تبغ قوية بالنعناع . تمسك بيدها اليسرى كتاب الوليمة العارية لويليامس بوروس ، وفي الأخرى قلقها واضطرابها ، لم تتوقف عن رج مفاتيحها المعلقة بحامل المفاتيح المطبوع بشعار أحمر على شكل عقدة . قبل أن تغادر المنزل ، وكعادتي ، أسجل : ألوان الملابس التي ترتدي ، الأحذية ، لون العينين وراء عدستيها الاصطناعيتين للاتصال ، الحقيبة في اليد .

خفت ، كان لي إحساس بأنها ستختفي ، ولن تعود أبدا إلى سريري وبين ذراعي وفي أحرفي التي تتحرك كأفاعٍ مروضة جيدا .

عندما أنظر إلى نوبة أقول : «إن الإله أنثى »

وأترصد أثناء الليل ، الذي يسقط في آخر كل نهار على هذه المدينة كمقصلة ، رنين الهاتف . من وقت إلى آخر أتفحص تنفسه وحرارته . أتأكد بأن هذه البهيمة الآلية ما تزال حية . كانت تنظر إلي في

العينين ، تقذفني بعين السوء . غراب ! كانت الخفافيش تنوح على حافة النوافذ .

دخلت إلى المرحاض ، تأخرت هناك قارئاً مطوية سياحية . أترقب رنين الهاتف .

كنت أقتل الوقت : «أسبوع في جربة بتونس بـ 2990 فرنكاً » صورة جميلة وغريبة جداً لبعير وثلاث نخلات ألوانها : زرقاء وبيضاء وحمراء . تحت هذه الصورة تعبير ناطق : «لوكالة سياحتكم أفكار»

أحسست بالجوع ، وفي الوقت الذي فتحت فيه الثلاجة ، لاحظت أن المصباح لم يعد صالحاً . تذكرت الشاعر الصيني ، نسيت اسمه ، الذي يعيش منذ أكثر من عشرين سنة على البطاطس والماء .

ماذا يمثل هؤلاء الشعراء الصينيون الخمسة عشر المنتحرون في سنة 1995 بالنسبة إلى بلد عدد سكانه أكثر من مليار نسمة ؟

كنت أقول لطلبتي في جامعة وهران أو لطلبة جامعة باريس ، أن شاعراً واحداً يعادل بلداً يقطنه مليار نسمة ، لم يكونوا يخفون ضحكهم واستهزاءهم . إني في المرحاض ، أتأخر ، أترك الباب منفرجاً حتى أتمكن من سماع رنين الهاتف .

أقرأ كتاباً مسلياً ، أنظر إلى رف المرحاض . هذا الكتاب الجميل يقتفي بدقة علمية فريدة تاريخ المراكن وطرادات مياه المراحيض في الحقبة الفيكتورية . فهو مزين بصور جميلة ملونة .

إني أقتل الوقت الذي بدوره يقتلني .

في المرحاض ، أحب قراءة سير رجال السياسة ، نجوم الأغنية والسينما التي يكتبها الزنوج ، ودعاية الواجهات الكبرى ، وصفات فواتير الهاتف والكهرباء

والغاز. مرحاضي مكتبة حقيقية مجهزة بمؤلفات أكثر غنى من المكتبة البلدية لحينا. فيه حتى الروايات والمسرحيات.

في الخارج، سقط الليل على مدينة بلا رائحة ولا ملامح. أكره الأفلام البوليسية على قناتنا الوطنية التي تمنع القبلات واللقطات الجنسية. أتجنب موعد الأخبار المتلفزة. الأخبار ليست أخباراً. أنتظر مكالمة نوبة. أحب صوتها عبر الخطوط. أعرف أن مليكاً سيجري له العملية الجراحية جراح طبيب أطفال فلسطيني الأصل أحد المعجبين بالدكتور جورج حبش، رئيس الحركة الماركسية التروتسكية، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. جراح ملتهم للروايات والشعر. يحفظ عن ظهر قلب مئات الأشعار للمتنبي (القرن العاشر)، الشاعر العربي الكلاسيكي الكبير.

لم تنم ابنتي لايا. طلبت مني أن أساعدها في حل تمارين الإنجليزية. لايا، كأمها نوبة، تحب اللغات: الفرنسية والعربية والإنجليزية والإسبانية، وأيضاً الموسيقى والفنون التشكيلية. وتكره مثلي دروس الجغرافيا والبيولوجيا. لايا طلبت مني أن أساعدها على استخراج الكلمات من أصل إنجليزي من نص لغة فرنسية:

Western, picpocke, shampooing, short, jeans, tee-shirt, hamburger, steak, bar, shopping, pull-over, snack...

شعرت بتأثير كبير للإنجليزية على الفرنسية. كنت حساساً لهذه اللغة التي أصبحت أكثر فأكثر لغة صغيرة للأقلية الفرنسية والفرانكفونية، لايا، بلهجة ساخرة تعلق على هذا التمرين: «يجب بالأحرى البحث عن الكلمات الفرنسية في نص "لغة إنجليزية" !»

لم تتصل نوبة بعد هاتفياً . أتفحص مرة أخرى الحرارة في جهاز الهاتف الذي لم يتوقف عن النظر إلي بحقد دائماً في العينين مباشرة . كنت أتجنب النظرة الملحة والحائرة للايا . كانت تخنق ناراً كبيرة في قلبها . تركت نظري يتيه بحرية في الأقواس الخرساء لهذه العمارة الكولونيالية وأيضاً في هذه الصورة التي تحب لايا أن تغمض عليها عينيها كل مساء : خمس نوارس بيضاء كانت تحلق في سماء زرقاء ، وفاتنة ، وعلى الأرض شاطئ صخري يقذف عليه الزبد فقاقيعه ، يتقدم مقبِّلاً البحر .

الهاتف لا يرن . لقد مات ، شبيها بكتلة جامدة .

لست عطيلاً خائن فونيس ، أبحث عن سرفانطيس الذي ولد تائهاً .

المقـــــام

دخل هابيل في قاعة المكتب ، حياني ، وكعادته ، قلم الرصاص مثبت خلف الأذن ، يتحدث بصوت مرتفع كالمتوسطيين .

من هذه النافذة ، أتابع عمل الفرقة المكلفة بالأبحاث الأركيولوجية الجنائزية . المرأة ذات الجينز المرقع في الردفين والركبة اليسرى ، التي تسمى ماتي أو ماتيلد ، كانت تقود جرارة جارفة وآلة التصوير الرقمية المصنوعة في كوداك معلقة في رقبتها . أما الآخرون فهم شابان متربصان ورجل في الخمسين من عمره ، يحفرون ويجرفون بحذر ودقة . كانت امرأة أخرى بدينة بل سمينة جالسة على ركبتيها كما لو أنها تصلي ، ماسكة في يدها اليسرى منوراً وبالأخرى مصاصة مصنوعة في مولينيكس . من هنا أسمع شخير المصاصة التي شيئا فشيئا تبلع التراب والغبار ، لا تترك إلا العظام في تعريتها وقبورها وسرها . كان دوي المصاصة يكشف عن الهياكل العظمية أولاً بأول وملامح المرأة السمينة بدورها أخذت كل آثار النشوة . يسمونها «المرأة الطوبين» . بجانبها على كرسي صغير منخفض من حديد ، كان الراديو يبث أغاني الحب وأخباراً عن البورصة وتعاليق عن اليورو والحرب في يوغسلافيا ، عن الاغتيالات والقتل في الجزائر وبالتأكيد حول قضية بيل كلينتون . مونيكا . لا أعرف لماذا أفكر في هذا الوقت في الخليفة الفاطمي الحكيم الذي عاش في بداية القرن العاشر : لقد منع

لعب الشطرنج وبيع السمك بلا شوك ، وبعد خمس وعشرين سنة من الحكم اختفى بطريقة غريبة خلال نزهة بمفرده . مفكراً في مصير الخليفة ، أعطش لكأس خمر . المرأة السمينة كانت تحك فرجها مفرجة عن فخذيها ، تمسح بعض القطع النقدية القديمة التي وجدت في قعر جرة في قبر بمستويين ، وترتب العظام وتعيد الأسنان في فم الهيكل العظمي . كانت الأخرى ذات الجينز المرقع في الردفين تأخذ صوراً وتدون ملاحظات في سجل صغير وردي والسيجارة برائحة النعناع لا تفارق شفتيها . أشتهيها ، هذه المرأة التي تكرهني وتنظر إلي باحتقار وخوف .

لست عطيلاً خادم فونيس ، أنا سليل سرفانطيس القرصان .

هذا المساء سأقرأ لكارين هذا المقطع الجميل . عندما أقرأ لكارين أو بالأحرى أحكي لها ، كما أفعل منذ ثلاثة أشهر تحب أن تتعرى لتدخن صوتي بشهية وترتشف الحكايات المكتوبة في المخطوطات . أنظر إلى نهديها الصغيرين ، النائمين في رافعة النهدين المخرمة ذات اللون الأبيض الثلجي . إنهما الجزء الوحيد من الجسد الذي بقي مخفياً .

«كان يوم وصولي يوم شمس في الصباح ، وعند المساء اكفهرت السماء وبدأ المطر يتساقط . كنا نبحث عن السماء ، والسماء ذهبت . فوقنا ، فوق رؤوسنا ، لا توجد سماء . مسعود الأكبر ، للمرة الأولى ـ وهذا يتكرر منذ تسعة أشهر وسبعة عشر يوما ـ يغادر فراشه المحمول على فرسه النبيل . هذا الصباح قرر مسعود الأكبر أن يطلق موته ، أن يهجره ، هذا الموت المضلل المنتظر من قبل الجميع منذ تسعة أشهر وسبعة عشر يوما ، منذ أن غادر الباب الشمالي ، هذا المسمى باب الخلاص ، باب الشمع . لم يتوقف مسعود الأكبر ، في

حالـة محمومـة ، عـن القـول والتكـرار لمرافقيـه : الخرائطـي والمترجـم والخطيب الغوغائي :

"إذا لم تجدوا المكان المناسب لدفني ، بلد الميموزا والألحان العود الأندلسي وأغاني البربر ، ادفنوني على ظهر هذا الفرس . أقيموا على صلاة الجنازة وحرروا فرسي . مطيتي ستأخذ جثتي نحو عين الشمس ، هناك حيث يجب دفنها" .»

مستمعاً إلى كلامه الذي يشبه برنينه خطاباً إيصائياً ، كانت الدموع تنحدر شلالاً من عيني حوقل . بقي المترجم الذي فقد لسانه ساكناً ، متأملاً أوراقه المليئة بالسهام و الألوان :

«اليوم ـ ليحفظ الله مخلوقاته في ظل رحمته وجنانه ـ أرى مسعوداً ، ها هو ، من لحم ودم ، الوجه ينفتح في الوجه ، وفي يوم واحد استعاد شبابه وأصبح في الخامسة والعشرين ، البركة الربانية .»

أعدت إغلاق المخطوط . خفت من عيني المرأة ذات الجينز المرقع . غادرت هذا المكتب المليء بصور العظام الملونة ، وعرمة من البطاقات للمعجم المعاصر خاصة بالباحثين ، وروائح السجائر . سحبت كميتي ، هذا الشيء الذي هو أنا ، أصبح شيئاً فشيئاً ثقيلاً ، محاولاً بلا جدوى نسيان كل ما يحرق قلبي . في المساء حوالي الساعة الخامسة ، هنا ، في هذه المدينة المخضرة ، مدينة المائة وثمانية وعشرين نوعاً من الجبن والأرانب ، يسقط الليل في الرابعة بعد الزوال . غادر أعضاء فرقة البحث الأركيولوجي الجنائزي وكارين وهازين والآخرون أيضا الأمكنة ، ووجدت نفسي وحيداً في هذه الغرفة التي كانت تستعمل في القديم تمراداً . في هذه الساعة ، كان دير آدم يشبه نوعاً من البهائم الديناصورية .

الرذاذ الذي كان يرتطم بلا انقطاع على السقف الزكي للتمراد كان يحدث في إحساساً بالخوف . كانت رائحة مرة ، رائحة جلل الحمام ، تجعل رأسي يدور . الخزف المزخرف الأزرق الذي يطوق جدران التمراد على شكل دائرة تشبه حزام بطل بدوي رأيته في فيلم إيطالي . أحب السينما الايطالية .

في هذه الساعة ، أحب أن أرى صورة النبي المتخيلة من قبل الكاتب والرسام اللبناني خليل جبران .

ها هي الصورة :

النبي يشبه البابا والبابا يشبه أبي الذي منذ أن غادرت مدينتنا المنسية لم يخالف مواعيده الهاتفية ، واتصالاته الربانية . كان حارسُ دير آدم على خلاف مع البلدية لأنه رفض إخلاء الأمكنة ، وهو يعرف جيداً مواعيد اتصالات أبي . فاجأته ثلاث مرات وهو يتنصت ويسجل مكالماتنا الهاتفية . أعرف أنه يفعل هذا مع المرأة ذات الجينز المرقع . أشتهي هذه المرأة المتوحشة .

مدفوعا برغبة رؤية ماذا يجري في ورشة البحث الأركيولوجي ، للمرة الأولى منذ خمسة شهور وأنا هنا ، أحسست بأني معني ولا أعرف كيف ، بأعمال البحث وتحديد هوية العظام . لم أظن أبدا من قبل أن الدفن يمكن أن يجرى داخل الدير . أدخل ، لقد تجاوز النهار منتصفه قليلاً . كل أعضاء الفرقة قد غادروا الورشة . إني أسمع أزيز المصاصة المصنوعة في مولينيكس . لا أرى المرأة التي تمسكها . أتقدم دون أن أقول شيئا . أشير لها بحركة من رأسي لأحييها . أجابتني بالطريقة نفسها . أتقدم ، أبحث عن رجلي ، لا توجد إلا ثقوب أو حفر وعظام مرتبة جيداً في صناديق من البلاستيك ببطاقات تحمل أسماء وأحرف وعلامات وأرقام . هناك أيضا أكياس من النايلون تحتوي على بعض

القطع النقدية التي وجدت مدفونة مع باقي الهياكل العظمية . كنت أميز قبوراً بثلاثة أو أربعة مستويات . في الحفرة نفسها يوجد ثلاثة أو أربعة أجسام مدفونة معلقة . كانت المرأة السمينة المسماة دوروطي التي تعمل بمصاصتها المصنوعة في موليـنيكس ، في عمق حفرة من أربعة مستويات تبتسم لي . كانت تضع سلسلة صغيرة فوق أذنيها . إنها المرة الأولى التي يبتسم لي أحد في دير آدم . شكراً أيتها المرأة . المرأة السمينة التي خداها ورديان متدليان قليلاً ، لها أسنان كالحليب ، بيضاء مرتبة جيدا . ابتسمت لي بلا انقطاع هرير مصاصتها المصنوعة في مولينيكس ، لم تكن تنظر إلى رأسي

أنا بدوري أطلقت لها بسمة . أقترب . الآن المرأة السمينة توجد في مستوى رجلي ، دائماً في قعر القبر ذي الأربعة مستويات . كانت المصاصة تشخر ، فهي بلونين أحمر وأزرق . نتحادث لبرهة ، للا شيء :

«الجو حار في هذه الورش »

ثم لفت سيجارة . كانت تعظ على سلسلتها الذهبية الصغيرة .

«هنا لا نرسم قوس قزح» ، أجابتني .

لم أفهم شيئا . تحت سقف دير مثل هذا ، مليء بالعظام ، لا نفهم شيئا .

صمت . كان شخير المصاصة يظهر لي كموسيقى سماوية ، كالصمت .

وجه هذه المرأة يشبه وجه الفتاة بالقبعة الصفراء ، في النجمة الجميلة للرسام فرانز أميلين التي رأيتها في متحف فيينا ، كان ذلك ربما منذ سبع سنين .

كانت المرأة تنظر إلي ، تحرق عيناها جلدي ، وبين يديها عظم ساق . كانت تداعبه . قشعريرة لطيفة تسري في ظهري . نظرت إلي . أخفضت عيني ، دفنت نظري بين رجلي .

ليس هناك سوى صمت شخير المصاصة .

المرأة السمينة لا ترى إلا أعضائي التناسلية وأصابعي . وأنا لا أرى سوى صناديق العظام ببطاقاتها الصفراء وقرية النمل . طلبت مني أن أنزل إلى الحفرة ذات الأربعة مستويات في القبر . نفذت دون أن أعرف لماذا .

«هنا لا نرسم قوس قزح !»

معاً ، ما زلنا نحن الاثنان عائشين ، في هذا القبر الحفرة ، المحاط بعظام ثمانية هياكل عظمية وبعض القطع النقدية ، كانت المرأة السمينة تظهر لي هيفاء ، ورائحتها تجذبني . أما المصاصة فكانت تكشف عن أجزاء شيئاً فشيئاً فيتضح أنه هيكل عظمي .

"إنها امرأة" قالت المرأة السمينة .

ـ امرأة مدفونة في كنيسة ؟ كيف نميز هيكلاً عظمياً لرجل من هيكل عظمي لامرأة ؟

المرأة تنظر إلي أو على الأصح تنظر إلى أصابعي وعضوي التناسلي . أخفض العينين . ودون أن تعطيني الوقت أخذتني بين يديها . أغاصت أصابعي في فمها المبلل . المصاصة المصنوعة في موليكس تغرغر . رفعت العينين حولي . ليس هناك سوى ورشة البحث هذه ، أطلال هذا الدير الصامت . أعضاء فرقة البحث الآخرون ذهبوا ليتغدوا . تعودوا أن يأكلوا عند صاحب مطعم كردي ، الذي لم يتوقف منذ توقيف عبد الله أوجلان عن تحريك ناس هذه المدينة من أجل التضامن معه . المصاصة تشخر ، معطية الحياة لمكان الموتى والأسرار هذا . شق على المرأة خلع سروالها الجينز اللاصق على ساقيها وردفيها . عرتني زراً بعد زر . بين يديها الموسليتين ، كنت كعظامها التي لا تستطيع الكلام أو الكشف عن

أسـرارها . رضـخت . أمسـكت عضـوي التناسـلي بـين يـديها السـاخنتين وبـدأت تداعبه بحنان . ثم ، افترسته مرة واحدة ! كانت المرأة تصرخ . والمصاصة تشخر . كنت أسمع تكسر العظام من تحت رجليها ، مـن تحـت حذائها . اندفعت ، أولجت عضوي فيها . كنا ملتصقين . كانت تصـرخ كذئبة مـن الجـوع أو الحـر . ذكرتني المرأة بصوتها المليء والمجروح بـالغنج الـذي تطلقه تلك الـتي تعيش مـع عشـيقها وأبنائهما الاثنين أو الثلاثة ، في حجرة مصـعد عمارتنـا ، في مـدينتنا الـتي هـجرتها منـذ خمسـة أشـهر وخمسـة وعشـرين يومـاً . في قمـة الشـهوة ، المرأة البدينـة الصـارخة غـرزت في ظهـري أظافرهـا وعضـت أذنـي . كنـت صـامتا ، أنظـر إلى صـناديق العظام المرتبـة جيـدا ببطاقاتهـا الصـفراء ، علاماتهـا وأرقامهـا . مـا زلنـا ملتصـقين كنـت أفكـر في خمـري الليلـي . عنـدما نطـت خـارج الحفـرة ، قالـت لـي المرأة السمينة :

«أعطني تذكرة صغيرة .»

لم أعرف ما أعطيها . كنت أنظر إلى فرجها المشعر .

أخذت حجارة وأعطيتها لها . خرجت المرأة السمينة من حفرتها مسوية سروالها الجينـز . وأخـذت تحـدثني عـن اكتشـافاتها : عظـام النسـاء والرجـال ، وعظـام خيـل، والمخطوطات المكتوبة باللاتينية ، والعربية والعبرية والقطع النقدية المسكوكة بالشمع، في القدس ، وفي الفاتيكان .

«ماذا ؟ عظام خيل ؟

- يدفن الرجال قرب الخيل»

غادرت ورشة البحث الأركيولوجي الجنائزي . شعرت بـالجوع وكان الجو حـاراً رغم الاكفهرار والماء الذي لم يتوقف عن السقوط مدراراً من علٍ بلا سماء وبلا إله .

القيلولة

هذا المساء ليس هناك امرأة بين أغطيتي الوردية التي تغيرها المرأة كل ثلاثاء المرأة العجوز من مصلحة التبييض لبلدية مدينة الولاية ، فخورة بدير آدم وبمشروعها لتحويل هذه العمارات الخربة إلى مركز ثقافي . لا أفعل شيئاً على الإطلاق ، أكتب ، أنظر إلى قنينة خمري الإسباني وألوان هذه الغرفة التمراد الواقعة في قمة العمارة المهجورة ، كانت في القديم مسكونة ، كما أكد لي هابيل ، من قبل الأخوات والإخوة والحمام .

هنا ، يمكن أن نبقى جالسين ، مثلاً على مقعد ، مدى الحياة .

لا يهم .

يمكننا ألا نقول شيئاً ، مدى الحياة ، لأنه ليس لنا من نتحدث إليه ، وليس لنا ما نقوله .

لا يهم .

يمكننا ألا نقرأ الجريدة الرسمية لأنها فارغة من أي محتوى . وهكذا بقية الجرائد المحلية.

لا يهم .

نقرأ ، جالسين على مقعد حديقة عمومية أو في مقبرة مملوءة بالأزهار والصور ، الإعلانات الملصقة على السيارات ، وإعلانات الواجهات الكبرى .

هنا ، هكذا هم الناس !

أنا لست ابن حفيد عطيل، عطيل فونيس، أنا مثل سرفانطيس، ابن السبيل. ولدت على طريق التيه والمصادفات.

من هذه النافذة المترسة، في الطابق السادس، أطل على ساحة العرض العسكري، أو بالأحرى ساحة أول تشرين الثاني: من ناحية هناك المسرح المزخرفة واجهته بمجسمات جنيات البحر صغيرة والملائكة والحوريات، ومن الناحية الأخرى فندق المدينة، الصرح الكبير المدهش المحمل بزخارف بأسلوب جارنيي. وهرّان ضخمان من البرونز يحرسان الباب الكبير المفضي إلى الدرج الرخامية التقليدية.

شمالاً، شارع لاك دوك المبلط المنحدر نحو البحر، هنا حيث آلاف النوارس البيض الضاحكة تحلق كأزهار مرفرفة. كان هنا في القديم الماخور المشهور حيث تسكن وتعمل بضع مئات من المومسات المحترفات الآتيات من رياح الأرض الأربعة: عربيات وبربريات وإسبانيات وإسرائيليات وإيطاليات وفرنسيات. كن يشكلن اتحاداً متعدد الجنسيات (لا أحب هذه الكلمة، جنس)، اتحاداً شهوانياً.

لماذا أتذكر، أنا وأنا وحدي هذا الماخور الذي نسيه الجميع؟

لا ننسى النساء ولا رائحة المواخير.

إن ماخور لاك دوك هو حج اللذات المعروف أكثر في كل شمال إفريقيا، هنا حيث تعيش وتقيم المومسات المشهورات، وكبار شعراء الغزل والتأمل الصوفي العجائبي: أبو اليقظان، السيد زكري، والشيخ بطاهر ومصطفى بن إبراهيم والشيخ عين تادلس وعبد القادر الخالدي وآخرون، والمغنيات العاليات المعروفات الشيخة رينات الوهرانية والشيخة الرميتي الوهرانية وطيطما ومزيكا التونسية وأخريات.

أساتذة ذواقون مشهورون ومختصون في الشواء أتوا من كل القارات ومن كل اللغات، تونس وجربة وطنجة وبجاية ومرسيليا والإسكندرية وحتى من القدس المقدسة، أقاموا مطاعمهم المتواضعة على الأرصفة الضيقة. كان للشواء والمقلي مذاق فريد ورائحتها كانت تغمر غرف الطبقة السفلى والطابق الأول حيث تجتمع النساء أمام الأبواب وعلى الشرفات.

كان لوهران قديماً الأنف وحاسة الشم!

كان لها صيادوها بملء البحر وملء الحياة الذين لا يتوقفون في شاطئ المرسى عن الاحتفال بالخمر والتغني بالعاهرات في لغات دامية ومقفاة ومختلفة: عربية وفرنسية وإسبانية وبرتغالية وتركية وعبرية وغيرها. كل واحد يتكلم لغته والكل يفهم الكل.

النساء الفاتنات والمعطرات يشربن بلذة (BAO) المنعشة، الجعة الوهرانية، ويأكلن اللحم المطحون المحشو على الطريقة التونسية المشوي والحار كثيراً.

وقت القيلولة، كان الماخور غارقاً تماماً في رائحة الكسكسي الزنج. كالعادة،

في وقت القيلولة النساء لا يستقبلن إلا الزبائن المفضّلين الذين يمتلكون حسن الدعابة. يسمعن معا الأصوات الجميلة للشيخات ويدخن الحشيش مرتشفات الشاي بالنعناع. تفوح من فساتينهن الوهرانية الطويلة والجميلة رائحة العنبر والجنس والحناء.

أسطوانة قديمة بخمس وأربعين دورة على فونوغراف. الصوت الدافئ والجارح والمجروح للمايسترو الكبير الشيخ عبد الكريم دالي يصعد شعلات ليغطي السماء الزرقاء لمدينة في شهر أعراس دائمة.

وهران، هي المدينة القادرة على تغيير ماء البحر خمرة عتيقة !

لماذا أتذكر، أنا وأنا وحدي هذا الماخور الذي قد نسيه الجميع ؟

مدن منسيّة.

مدن خادعة.

نوبة لم تتصل هاتفياً. إنها العاشرة ليلاً وثلاث وعشرون دقيقة في ساعة البهو النحاسية. الشوارع أخذت تصبح خالية. مثل الأرانب السود والرمادية كانت الجرذان تخرج من منافذ مصاريف المياه القذرة تمسح شواربها الطويلة على الرصيف. كان المارة القلائل المتبقون يوسعون الخطى. والسيارات تبعث الأضواء الحمر. وعلى المقود، سائقون مضطربون مسلحون ومملوءون بالخوف نظراتهم غامضة.

جغرافية الخوف.

كنت أقتل الوقت بقراءتي لأحد الأعداد من مجلة علم اجتماع جامعية، مخصصة لهندسة المقابر الإسلامية. موضوع فضولي لم يتوقف عن إشغال عدد كبير من الديموغرافيين، علماء الاجتماع ومهندسين معماريين من القاهرة ومن إسطنبول.

كانت الصحون اللاقطة على سطوح العمارات، موجهةً نحو سماء فارغة. يذيع الراديو المحلي مجزرة سيدي رايس، يدلي بعض الناجين بعدد الضحايا الذي يصل إلى أربعمئة، اغتيلوا بالسلاح الأبيض أو بالرصاص. بعض العائلات قد أحرق أفرادها أحياء في منازلهم.

نوبة انقطعت أخبارها.

غادرت البهو. التحقت بغرفة الأطفال. لايا تنام، كتاب اللغة الإنجليزية ما زال مفتوحاً يرتاح على صدرها على شكل فراشة. جمعت الكتاب وأطفأت النور.

الجو حار جدا! الجو حار جدا!

عندما تنام الكلمات
أسجل أحلامها

كانت المرأة بسروال الجينز المرقع غائبة هذا الصباح . إنها الحادية عشرة وبعض الدقائق ، لست متأكداً من أني قد ضبطت ساعتي بحسب التوقيت الصيفي أو الشتوي ، لا يهم . أشعر بأني وحيد ، متوقف ، كأجذم مقطوع بين العظام وصور الهياكل العظمية بالألوان وهذه العرم من الملصقات ومواد مشروع قاموس حول المثقفين العرب والمغاربة المغتالين أو الممنوعين من قبل المحققين الجدد .

أفكر في ابن رشد .

أفكر في سبينوزا .

وفي المرأة بسروال الجينز المرقع التي لم تعد . أشعر في غيابها ، بتراكم الوحدة والخوف طبقة طبقة في داخلي . أرغب في قهوة سوداء معصورة جيداً على أرصفة مقاهي وهران ، حيث كنا قديماً نترصد بنات الثانوية أو بنات دائرة اللغات الأجنبية ، اللواتي لا يتكلمن إلا بالفرنسية ، أو الإنجليزية أو الإسبانية . إنهن جميلات ، بنات دائرة اللغات الأجنبية الحية .

عرم الملصقات بالألوان المختلفة ، التي أسجل عليها ملاحظات حول سير ونقد الكتاب المغتالين أيضاً ، حول أعمالهم التي تجتاح شيئاً فشيئاً غرفتي المرتفعة وهذا المكتب الذي أتقاسمه مع المرأة بسروال الجينز المرقع .

مرة أخرى أفكر في الماخور وسرفانتيس الذي أحب وهران قبل كامو .

في صمت المقبرة كانت الملصقات تخيفني بأخبارها . كسقوط ثلج أسود ، أقام الخوف المتراكم ، جبلاً في قلبي . كانت بطني تؤلمني . وكنت أبول في المغسل . تتكلم هذه الملصقات . أسمع أصوات الموتى المسجلة في الملصقات . غيرت اتجاه العينين .

كنت أحاول قراءة الجريدة الجهوية : في الواجهة صورة الرئيس وصورة في مكان آخر للنعجة المستنسخة دولي . كان الرئيس يبتسم . كانت الصور المأخوذة للعظام من قبل المرأة بسروال الجينز ، الجيدة والمرتبة جيدا تجفف حلقي وتجعل القشعريرة تسري في عظامي .

بين ملصقات الموتى وصور الرئيس وصورة النعجة دولي المستنسخة ، هذا المكان الذي كان مخصصاً في القديم للإله ولخدمه وللصلوات ، كان يبدو لي خفياً وشيطانياً .

كارين دائما معطرة جيداً ، تتردد في اقتحام عتبة المكتب . هي أيضاً لا تحب رؤية صور العظام بالألوان المرتبة جيداً على هذه الطاولة البيضاوية الشكل ، زد على ذلك هذه العرم التي تشبه شواهد القبور . أعرف أنه عند هذه المرأة الإيطالية الأربعينية ، التي فضلت أن تعيش في الإقليم ، في هذه المدينة الصغيرة ، في أي مكان ، يخفق قلب صغير مملوء بالحياة والأحلام . فهي هيفاء ، بشوشة وباسمة وراء عينين كبيرتين وضاحكتين .

وحدها المرأة البدينة ، في ورشة البحث الأركيولوجي ، تجمع صناديق العظام وهي تقضم البسكويت . من هنا أتصور فرجها المشعر والمتعرق والناعم الملمس ، مفقوداً بين جبال ضخمة من لحم وشحم أبيض . قد مرت أكثر من

أربعة أسابيع منذ أن مارسنا الجنس في القبر ذي الأربع مستويات، وما تزال رائحة الموتى في جسمي. وفي أغطيتي أيضاً، في ملصقاتي وفي قنينات خمري الإسباني المقتنى بثمن رخيص. أحب رائحة كارين.

هابيل يعلق على قرار مجلس الإدارة القاضي بتجميد أرصدة التنقيب الأركيولوجي:

«حتى الموتى ليسوا هادئين.»

لم أفهم. عطر كارين اجتاح المكتب. أستيقظ من سكر لأسقط في بخار آخر. شربت أمس كثيراً.

هذه المدينة الفخورة بدير آدم، تحتفل بعيد الميلاد. في كل مكان ليس هناك سوى اللافتات الضخمة للإعلانات: المواد الاستهلاكية وآلات التصوير. هناك أيضاً بعض الشاشات الضخمة تبث صورة السيد رئيس المجلس البلدي ببسمة عريضة على الشفتين وفي العينين، يرجو عيداً سعيداً لمواطني مدينته. بما أنه العيد، أنا، أشعر بأني حزين، منطفئ، وأني من رماد. العالم أعمى. ككيس فول، نسيت في هذا التمراد الذي يخنقني ويسحقني سقفه السفلي. أشعر بأني صغير، مصغر، شبيه بنوع من الحشرات المنقرضة.

ليلة 25 كانون الأول، رئيس البلدية شخصياً، نعم، رئيس بلدية هذه المدينة فخور بضيفه الباحث المنفي وبدير آدم في غمرة أشغال الإصلاح، بعث لي بعلبة ملفوفة بشكل رائع: قنينة سان جوزيف قديمة وعلبتا كبد السبط الإسكندنافي وزنها مئتان وخمسون غراماً وبطاقة بريدية تمثل دير آدم، على ظهرها جملة فارغة بقلم أسود: «عيد ميلاد سعيد».

في هذا الصباح ، وضعت أمام الباب المصفح لهذه الشقة المعلقة في الطابق السادس ، علبة غريبة وملغزة ، ملفوفة بعناية في ورق أسود . فتحتها : صابون غسيل ، ثوب كفن أبيض ، قنينة عطر صغيرة ثمنها رخيص ، تسمى بلوم بلوم ، عطر الموتى وجملة قصيرة مكتوبة بلغة عربية فصحى ، على ورقة مقطوعة من كراس مدرسي : «إنها نهايتك ، ملحد.»

نظرت طويلاً إلى قنينة الخمر . أتذكر أني ذقت هذا الخمر في قرية صغيرة ، سان جوليان مولين موليت . قرأت ملصقة إحدى علبتي كبد البط الإسكندنافي . أخذني ضحك مجنون .

وبما أنه لا يوجد جهاز هاتف في غرفتي الصغيرة ، أتصل غالباً بأصدقائي من مكان يبعد ثمان مئة وثلاث وخمسين خطوة ابتداء من الدرج الأخير للسلم ، من غرفتي الصغيرة . هذا المساء اتصلت بالمرأة البدينة ووجدت المجيب الهاتفي . لأن المرأة البدينة لطيفة جدا ، بمجرد أن تسمع صوتي ترفع السماعة . رجوت لها عيدَ ميلادٍ سعيداً وصحة جيدة . طلبت منها ما إذا كان باستطاعتها أن تأتي لتأخذ علبة صغيرة اشتريتها لها . المرأة البدينة ، تأثرت ببادرتي وقالت لي : "سآتي يا مسعود !"

– إني في المخدع الهاتفي ، الذي يشكل الزاوية بين شارع المهاجر والشارع القديم لليهود .

- "أعرف المكان ، عندي خالة تسكن بالقرب منه"

أعرف أن هذا غير صحيح . ليس لها لا خالة ولا عم .

إنها العاشرة وبضع دقائق . لاحظت أنها أثلجت طيلة اليوم . ما تزال تثلج . كنت مختبئاً في المخدع الهاتفي ، أنتظرها . الشارع خال ، قليل من عربات

الشرطة تجوب الشوارع . الناس يحتفلون بالعيد . القاعات الكبيرة لهذه الإقامات المؤقتة مضاءة جيداً ، وراء النوافذ تنتشر كؤوس الشمبانيا التي تزبد وتزبد ، كنت أشعر بأعين تتبعني وتفترسني .

ليذهب الليل إلى الجحيم ، أحب النهار .

المرأة البدينة ، التي تسمى دوروطي وصلت . إنها وحدها في سيارتها . الجو بارد ، لا أغادر مخدعي . عرفت موضعي بسرعة . إنها آتية باتجاهي . أتصور فرجها المشعر المبلل والمفقود بين جبال من الشحم . الآن لا أجدها بدينة ، فقط غليظة قليلا ، وجذابة . شيء يشبه ذئبا استيقظ في داخلي . التقت بي في المخدع الهاتفي . قبلتني ، ودون أن تتأخر ودون أن تطلب مني ، فكت أزرار سروالي . عطرها يثيرني . رفعت فستانها ، انحنت قليلاً مقدمة لي الظهر . من الوراء أستطيع إيلاجها بسهولة . كما في القبر ذي الأربع مستويات ، كانت دوروطي تصرخ ، كانت تذكرني بغنج المرأة التي كانت تسكن في حجرة المصعد في عمارتنا ، هناك .

تثلج والجو قارس . ألجها . ها نحن ملتصقان . داخل ساخن وخارج يثلج دائماً . الريح تعصف وفي الداخل سخونة . أنا خيوط الثلج تحت ضوء المصابيح الكبيرة . ليس هناك لا سيارة ولا عربة شرطة . تثلج بقوة والمرأة التي تشبه جبل لحم وشحم تغنج وتصرخ كذئبه متوحشة . لاحظت أنها تعظ على فستانها . الفستان تحت ضوء المصابيح الكبيرة يغتني ويرهج بالألوان . أنا متيقن أن أعين ترانا من وراء زجاج النوافذ .

إنه عيد الميلاد ، وبما أنه عيد الميلاد فهو أيضاً الاحتفال . من فستانها الوردي الذي يغير الألوان ، تفوح رائحة الدجاج الرومي بالثوم . تثلج والريح

تعصف. ملتصقاً بهذا الجبل من اللحم، قضيبي دائما في الداخل، في محيط من الشحم وفي اللحم الأبيض. من مخدع هذا الهاتف العمومي، أتصور القاعات المزخرفة بالكريات وهدايا الأطفال الذين ينتظرون الأب نويل ينزل من المدفئة.

أنبش جرحي.

أرى أيضاً الأطفال الحفاة يشكلون سلسلة طويلة ليلبوا الماء في الصفائح المتراكمة الصدئة.

توقفت المرأة عن الصراخ. جبل اللحم يتحرك. تقبلني، راجية لي عيدَ ميلادٍ سعيداً. أهديت لها العلبة، التي بعث لي بها رئيس البلدية. لم أنس أن أسحب منها البطاقة البريدية الملتصقة بقنينة الخمر. عادت المرأة في سيارتها 306 ذات اللون الأخضر الغامق. وأنا!

لقد غادرتني في الليل.

ولا مكان، ابن السبيل والتيه.

إنها تثلج، الريح تعصف. أشعر بالبرد، لم يعد هناك «الداخل»! عربة الشرطة تنعطف. وضعت اليد على بطاقة الإقامة. ألمسها في الجيب. أحاول أن أتذكر رقم هاتف، لا يهم. أنا وحيد، نشعر بأن الوحدة ما تزال أكثر ثقلاً، أيام الأعياد. أرغب في التحدث إلى شخص ما، أي شخص. لم أستطع، ربما لأنها تثلج، ربما لأني مارست الجنس. أجر جسدي على الثلج الذي لا يتوقف عن التراكم طبقة على طبقة. أعود إلى غرفتي، إلى غرفتي؟ إلى غرفتي؟ إلى غرفتي؟ في غرفتي الصغيرة في السطح. أشعر بالبرد وكآبة رمادية. أتقيأ. أتأمل قيئي الأحمر على الثلج الأبيض: بعض حبات زيتون أسود وخمر إسباني وقطع سردين معلب منتوج مغربي. أجرّ هذا الجسم نحو غرفتي الصغيرة. من بعيد

يشبه دير آدم ديناصوراً . أتسلق أدراج السلم الخشبي . خطواتي لا تمشي إلى أي مكان ! هكذا أتقدم ، أرجع إلى الخلف ، أترنح يميناً وشمالاً . . .

لا يهم .

أنا أيضا أحتفل بعيد الميلاد : أجلس على الدرج الأخير . أخرج قنينتي ، وما تبقى من علبة السردين المنتوج المغربي وقطعة خبز وزيتون أسود وجهاز راديو صغير . في الليل التقط الجزائر وتردداً قبائلياً ! أشرب مباشرة من القنينة . أشرب وأعد إلى مائتين وثلاثة وسبعين . ثم أشرب وأعد إلى مائتين وعشرين . ثم أشرب من قنينة الخمر الإسباني وأعد هكذا إلى تسعمئة . ثم ألقي نظرة على ورشة التنقيب الأركيولوجي المضاءة بثلاثة عشر منواراً بخمسة آلاف واط لكل واحد . من هنا أرى صناديق العظام مرتبة جيداً . أشرب من القنينة وأعد إلى . . . أغنية بربرية لمعطوب الوناس . لا أدري !

صباح عيد الميلاد ، وجدت نفسي ممدداً كحطبة الميلاد على أدراج السلم الخشبي .

عجوز يمر . يشير إلي بيده .

هكذا !

أنا أيضا احتفلت !

تأميـــم الماخــــور

النهاية الأخيرة للدولة هي الحرية

سبينوزا

لماذا أفكر ، أنا وأنا وحدي في هذا الماخور الذي دفنه الجميع في مقبرة النسيان ؟

إنه اليوم الكبير ، يوم العسل .

هل صحيح أنه يوم عيد وطني ؟

تزين الرايات الكبيرة بهلالها السطوح ومدخل ساحة سبك الفن لهذا المعلم الضخم ، حيث تسكن مائتان وسبع وأربعون امرأة . وألصقت على أبواب غرف المرور الخشبية ، تلك الموجودة في الدور الأرضي والطابق الأول مئات الرايات الصغيرة من الورق أو النايلون تشبه تلك التي وزعت علينا من قبل مدير مدرستنا بمجرد أن يعبر موكب وزير أو والي القرية . . .

لماذا أفكر ، في هذا الماخور الذي نسيه كل سكان هذه المدينة الساحلية .

ليس صحيحاً ، لا ننسى أبدا : المواخير والأمهات وأماكن الصلاة .

أشرب خمري الإسباني من القنينة . عشرات الكؤوس المتسخة مكدسة في إناء من البلاستيك . توجد المراحيض في الطابق الأول غالباً . ومنذ أن شغلت

هذه الغرفة الصغيرة الموجودة في القمة ، لا أبول إلا في المغسلة . حتى عندما أكون في فنادق خمس نجوم - حصل لي هذا ثلاث أو أربع مرات - أشتهي البول في المغاسل النظيفة جدا ! أنا هكذا !

في كل الحالات إنها غرفتي ، ولا أحد يتصور أني بصدد البول في مغسل دير آدم .

في الساحة المربعة التي تنفتح عليها النوافذ وأبواب شرفات غرف المومسات ، حيث كانت الفرق الفلكلورية والشيخات تعزف فيها الموسيقى قديماً ، فرقة من عمال مخزن البلدية يفتحون بسرعة محاولين إقامة منصة كبيرة من الخشب الأحمر . مكبر صوت بثمان مكبرات ضخمة و قوية لا تتوقف ، وهذا منذ ثلاثة أيام وأربع ليال ، عن بث وإعادة بث النشيد الوطني ، ألحان وطنية ، قصائد تلقى بصوت كتلها المتحمسين والموسيقى العسكرية . من وقت إلى آخر ، كانت المومسات تطلقن الواحدة تلي الأخرى الزغاريد المجروحة والدامية .

وصل «ناس البوليتيك» في الصباح الباكر . لقد جاؤوا من الجزائر العاصمة (الجزائر هي عاصمة الجزائر ، تسمى البيضاء رغم جبال الدنس المكدسة على الأرصفة والساحات العمومية ... في كل مكان !) . مرتدين بدلات الألبكة السوداء ، وقمصاناً من الحرير الفارسي بيضاً مكوية جيداً ، «ناس البوليتيك» ، الابتسامة مرسومة على الشفاه بطريقة مدروسة ، يتناوبون واحدا يلي الآخر ليلقوا خطاباتهم الغزيرة من على المنصة الكبيرة حيث تجرى الاحتفالات الرسمية .

كان رئيس «أصحاب الألبسة الرسمية» ، هو أول من تناول الكلمة . وبعربية قرآنية متكلفة ومبهمة ، يستحضر الدور الرائع

والشـــجاع الـــذي لعبتـــه المـــرأة الوطنيـــة خـــلال جحـــيم ســـنوات الثورة الجزائرية .

لماذا أفكر ، في هذا الماخور الذي دفنه الجميع في مقبرة النسيان ؟

قلت في نفسي : توجد في كل عاهرة مقاومة . هذا المساء سأحكي لكارين الحكاية التالية ، وكارين ككل النساء ، تحب الحكايات . أمي ، هي أيضاً ، تحب الحكايات .

تحب كارين الاستماع .

أمي ، مسعودة ، تحب الحكي .

«هذه الحكاية ، قلت لكارين أو نوبة ، لم أعد أعرف من كانت ، قد ذكرها المؤرخ العربي الكبير ابن حبيب البغدادي في كتابه المشهور *الكتاب المحبر*» . في رأسي كعصف ريح ، سمعت صوت المرأة بسروال الجينز المرقع في الردفين تقول : "هناك أيضاً كاتب عربي ". بدأ التاريخ في حزيران 632 ، مباشرة بعد الإعلان الرسمي عن وفاة النبي محمد «ص» ... أفكر في النبي . أحتفظ بصورته المتخيلة من قبل خليل جبران :

أشرب كعادتي الخمر الإسباني الرخيص من القنينة البلاستيكية مباشرة :

لقد كان في حضرموت (مدينة اليمن حاليا) ست نساء كافرات من كندة وحضرموت يتمنين وفاة رسول الله «ص» ، أيضا (لما علمن بالخبر) صبغن أيديهن بالحنة وضربن الدف . التحقت بهن عاهرات حضرموت وقمن بالمثل ، لدرجة أن عشرين امرأة التحقن بالست الأوائل [...]. بعث أبو بكر«ض» خليفة رسول الله «ص» برسالة إلى مساعديه في منطقة اليمن ، يحاكم أول حركة نسوية في التاريخ الهجري الإسلامي : باسم الله الرؤوف الرحيم ، من قبل أبي بكر المهاجر ابن علي

أميه . الصالحين عبدي الله اللذين بقيا وفيين لدينهما ، في حين أن أغلب أعضاء قبيلتيهما قد ارتدوا عن إيمانهم– الله قادر أن يقبل جزاء المنصفين وأن يعاقب الآخرين بالمصير المخصص للمرتدين– كتبوا إلي ليقولوا لي بأن أمامهم بعض النساء الكافرات من الشعب اليمني اللائي تمنين وفاة رسول الله «ص» وقد التحق بهن قيان كندة وعاهرات حضرموت ، اللائي صبغن أيدين بالحناء وأظهرن فرحن وضربن الدف ، وعندما تصلكم رسالتي ، اذهبوا إلى هذه النسوة بخيولكم ورجالكم واقطعوا أيديهن ، وإذا دافع عنهن أحد ضدكم ، أو وقف بينهن وبينكم ، أنذروه ، وبينوا له خطورة ذنبه ، وعدوانه ، إذا تشبث برأيه ، اقطعوا كل تفاوض معه وابدؤوا الحرب . الله لا يهدي الخائنين ! في كل مرة أفكر ، أكون مقتنعاً بأن أي رجل لن يكفل الأفعال السيئة لهذه النساء ، وأن لا أحد يمنعك من طردهن من دين محمد ، كما تسحق جناحي ذبابة . . .

كارين ، لا أدري لماذا تحكي لي قصة أبيها ، الذي قضى ثلاثين سنة في نصب الأعمدة الكهربائية . شواه ذات يوم تيار بقوة عالية . سقط من الأعلى ، من قمة عمود ، رماداً .

كانت ذبابة تحوم حول فنجان القهوة . فجأة سقطت فيه . أرتشف قهوتي ناظراً إليها تموت ببطء في السائل الأسود الذي ما يزال ساخناً .

يتمطى الليل الرطب ، كنت مسمراً في الشرفة المدوخة . أنظر نحو الأسفل : كان الجرذان يمارسان الجنس . الأنثى كانت تتعاطى النشوة لدرجة العويل .

استقر صوت في أذني : «استحقاق شرف الثورة ، قال صاحب البذلة الرسمية ، يعود بلا شك ، وبدرجة أولى . لهذه النساء اللواتي يعطين بلا تحفظ "أجسادهن" وما هو نفيس لديهن » .

لماذا أفكر في هذا الماخور وأنا أتابع بدقة رفرفة جناحي الذبابة الغارقة في قهوتي المعتادة في الحادية عشرة .

بأعين منخفضة ، وقلوب مجروحة وأوجه مقنعة بحزن عميق ، كانت نساء النشوة مجتمعات أمام أبوابهن أو أبواب شرفاتهن . مهددات من قبل قوادتهن الجديدة ، لم تتوقفن عن الزغاريد أو الصياح : «يحيا الوطن المستقل ، يحيا الوطن» .

مسؤول «الحزب الواحد» ، متحمس ومأخوذ بحمى تصفيق النساء ومواضيعه ، يمسح عرقه المالح ، محاولاً عرض أسنانه جيداً المغلفة بالذهب الأصفر ، الذي يلمع عند مواجهته الشمس القائضة ، التي تختفي من وقت إلى آخر وراء غيم الخريف .

المسؤول الأول يحاول في كل مرة أن يقحم في موعظته السياسية المضجرة بل في خطابه القومي المتطرف ، مجموعة من السور القرآنية تمجد الشهداء ، وأبياتاً شعرية باللغة العربية الفصحى في الحب والشجاعة والنساء والفرسان ، وأحاديث الرسول «ص» . كانت كل المحالات على التقاعد بمجرد ذكر اسم الرسول «ص» تتمتمن معاً في الوقت نفسه وبالنبرة نفسها ، بالصلاة –عليه الصلاة والسلام وعلى آله وصحبه– متبوعة : يحيا الوطن ، تحيا الاشتراكية ، تحيا الثورة .

كانت أصوات القوادات هي الأكثر ارتفاعاً وتميزاً .

وراء المنصة ، وضعت طاولة كبيرة منذ الصباح ، وضعت عليها قنينات مشروبات غازية مفتوحة ، بألوان برتقالية ، حمراء ، وسوداء ، وحلوى ، وحلوى الألف والحلوى الجافة والفطائر والحلوى الشامية والنوقة . المناديل الورقية كانت

مطوية على شكل قبعة راعي الكنيسة . وضعت وسط الطاولة أربع باقات من الزهور ذابلة تحوم فوقها موجة من الناموس والذباب الأزرق . هذه المرأة التي لم تتوقف ، وذلك منذ بداية الحفل ، عن تدخين الحشيش ، سيجارة تلوى سيجارة ، تخفي في عمق عينيها وقلبها حزناً كبيراً . صامتة ، تبعاً لغيوم الدخان ، كانت تستعيد خيط الليالي الذهبية الطويلة التي أهدرت في هذا المكان الذي هو حلمٌ بالنسبة إلى كل من جاؤوا يبحثون عن اللذة ، والعيد والفرح . وصلوا نساء ورجالاً ، من كل أرجاء المعمورة . كل واحد يحمل في القلب حكايته ، أغنيته الدامية أو جرحه ، ليدفنه في هذا المكان السحري الشاسع والعالي والرحيم والذي كانت سماء الله قديماً تغطيه . واقفة في قفطانها الدمشقي بلونه الأحمر الروماني ، الحزام من ذهب عريض بأربعة وعشرين قراطاً ، الأقراط بربرية من فضة بيضاء خالصة ، والشفتان غليظتان ولحيمتان ملونتان ببنفسجي غامق ، والخدان مغطيان بغبرة وردية كستنائية ، والعينان دامعتان ، ما تزال الواشمة تحتفظ بسمات جمال رائع ، تجد نفسها مهددة شيئا فشيئاً بخريف العمر . كانت تستمع بفتور إلى الخطب المنعسة ، والمنفرة ، والمقززة والفظة .إنها شاردة ، الذهن معلق بالأزمنة الجميلة حيث كانت تتريع على هذا المكان الموسيقى الأندلسية الجميلة ليهود وهرانيين وقسنطينيين ، وأنغام الغيطة التي يعزفها شيوخ البدو الكبار وموسيقى الراي التي يعزفها روادها الوهرانيون والغليزانيون الأوائل .

خطاط رديء كتب على اللافتات والأعلام الملصقة على واجهة المنصة المجهزة لهذه المناسبة مازجاً أسلوب النسخ بالأسلوب المغربي ، شعارات تحيي الاشتراكية الوطنية ، والإسلام والعربية لغة الله ، والقرآن والجنة والأمة .

«أهدرت اثنين وأربعين عاماً في هذا الماخور، كمأجورة بسيطة»، قالت الواشمة.

هذه المرأة رفضت دائماً أن تسمى قوادة من الدرجة الأولى. للمرة الأولى، ها هي خلال هذه القيلولة الصيفية، تعترف الواشمة لزمرة النساء اللائي وصلن في الدفعة الجديدة بأنها خلال مهنتها كلها كعاهرة قد باشرها سبعمئة وثلاثون ألف رجل، بمعدل خمسين «مضاجعة» يومياً: قواد، محامين وأساتذة وأئمة وفلاحون وجنرالات وإداريون وسياسيون ورجال شرطة وطلبة وبطالون ومسلمون ويهود ومسيحيون... تحتفظ الواشمة في جسدها بسمة كل واحد منهم. ما تزال واقفة، معطرة وفاتنة، أو في سجل كبير محفوظ جيدا منذ اليوم الذي غادرت فيه مدينتها غليزان. اتخذت لسنين بعض زبائنها عشاقاً، وآخرين كحراس أو عبيد. كانت تحكي أيامها لزمرة نساء الدفعة الجديدة، كلهن ممددات على روضة مغطاة بالغرانيت المربع، متأملات وشمها الأزرق-الأسود على الجبين والخدين والمرفقين وحول السرة، وفي أعلى النهدين الكبيرين السمينين وعلى الفخذين والردفين وفي الأماكن الحميمية. أشياء غريبة وعجيبة موشومة على جسدها كله: أسماء مذكرة، أسماء مدن وتواريخ وقرون ثور أو تيس وأسماك وسمك قرش وأزهار وحجل بثلاث أرجل وثلاثة ثعابين بسبعة رؤوس وقضبان قفص عصفور ومفتاح صول ودلو محدب وأدعية وعدد من الرموز البربرية.

«قوادة حقيقية مثل هذه، قالت الواشمة، عليها أن تحمل تاريخها بكل التفاصيل في جلدها وذاكرتها وفي جسدها»

يسميها الجميع في الحي والماخور ميمي الواشمة.

منذ سنتين ، كانت الواشمة تتمنى الحصول على جواز سفر خاص لتذهب إلى مكة . كانت ترغب في الحج ، في زيارة قبر الرسول ، الرجل الذي أحب عدداً من النساء والذي كان متزوجا باثنتي عشرة منهن وربما أكثر . كانت الواشمة تحلم بأن تشرب جرعة من ماء زمزم المقدس ، ستكون آخر خمرتها الإلهية . هذه الأيام هي منشغلة قليلاً لكنها دائماً ضاحكة وبشوشة وباسمة وحالمة . لا تظهر ندماً ولا أسفاً ولا أقل إحساس بالعار تجاه ماضيها ، ومصيرها . فهي مسكونة هذه الأيام بحب جنوني وسماويّ بالرجل الأزرق والسفر في فيافي الصحراء العربية ...

أعلنت الإذاعة الوطنية أن انقلاباً ثورياً قد حدث في البلاد !

انقطع التيار الكهربائي . كان ممثل الحزب الواحد ، يواصل بحماس خطابه المدرار ، مأخوذاً بالهتاف والحرس والتعييش .

«كوبا ، البلد الأخوي والصديق ، جزيرة الحرية ، لقد حررت بفضل التحسيس الكبير للعاهرات ...»

كانت النساء تزغرد ، وبعضهن يرفعن أصواتهن : «لتسقط الإمبريالية الأمريكية ، تحيى العاهرات »

يا عاهرات كل البلدان اتحدن .

كان التقنيون يسرعون الخطى لإصلاح هذا العطب الملعون . كانت الواشمة بقلب بارد ومنقبض ، بإحساس غامض وبنبرة ساخرة ، تشاهد المنصة والممثلين .

بدورها ، صعدت إلى المنصة الأمينة العامة لاتحاد النساء لتلقي خطابها المرقون بأحرف كبيرة على أوراق وردية . تقدمت أمام قائد الناحية العسكرية ،

الحاضر، هو أيضاً، بهذه المناسبة الكبيرة والاحتفال الثوري التاريخي: «تأميم الماخور».

كانت الأمينة العامة لاتحاد النساء، في فستانها الجميل الأصفر الفاقع، من الحرير الفارسي الخالص، الذي يخفي قدها الصغير على كعبين طولين وحادين. من هنا نميز غمامة من الكآبة، أعراض مرض ملعون مخفي وراء ملامح وجهها المتعب المُجَمَّلِ بلون أحمر مثير ومبالغ فيه، تقرأ بعربية عامية دون أن تنسى هي أيضاً، من وقت إلى آخر ذكر بعض الأحاديث النبوية وكذلك بعض الآيات القرآنية بخصوص الخضوع الديني الواجب على المرأة اتجاه الرجل.

لقد أخرج الرجل المرأة من ساقه اليسرى!

إن الله الدائم أنزل نوما عميقا بالرجل الذي كان نائما؛ أخذ واحدة من أضلعه ووضع اللحم مكانها.

إن الله الدائم أخرج امرأة من الضلع الذي أخذه من الرجل.

وقال الرجل:

«هذه المرة إنها عظم عظامي، لحم لحمي. هي التي تسمى المرأة، لأنها أخذت من الرجل». (التكوين 2-3.)

كان الرجال الحاضرون يشجعونها بقوة بالتصفيق وبحركات الأعين وحركات الرؤوس. أما النساء الأخريات فكانت سجائر الحشيش تنتقل من فم إلى فم ويكشفن عن لا مبالاة تامة.

التفاحة الربانية

لماذا يعمر الحمام الأديرة والكنائس ؟ نجد في المكان ريش الحمام ورائحة نتنة تطفو في الهواء . في المساء ، ينسحب كل واحد في الصمت الذي هو ليس إلاّ أخاً للموت : المدينة ، الناس وورشة التنقيب الأركيولوجي والأصوات ... وفجأة سقطت سحابة من الأجنحة الزرقاء على حواف النوافذ .

تنوح دائما خفافيش شارع الألزاس-اللورين ، في ليلها الحالك وغير المنتهي .

هناك أيضا أزهار في المزهريات والسلل معلقة عند مدخل مسكن البواب الذي يترصد مكالماتي الهاتفية . هناك عشب مشذب جيداً ، يشبه شعراً مقصوصاً بعناية لجندي مطيع .

قالت لي كارين : «فيما تفكر : في الماخور أو في بلدك ؟» . أُخِذت بضحكة جنونية ، تذكرت بأني لا أعرف عما أو عمن أتكلم . كانت الأشياء والأماكن تختلط وتتقاطع في رأسي ، الذي بدأ شيئاً فشيئاً يثقل على عنقي وعلى كتفي المنهارين .

أفكر في سرفانطيس ومسعود الأكبر . هذا الأخير ليس سوى صورة أخرى لدونكيشوت المانش .

قلت لكارين : «لم أعرف أبداً بلدي . حياتي قضيتها كلها مثل كل مواطني سرفانطيس ، أبولي وسان أوغسطين ورشيد ميموني والطاهر جاووت ، وعبد القادر علولة ... في ماخور كبير يسمى وطن .»

هذه الليلة ، سأغير خمري .

كارين عارية ، تقريباً عارية تماماً ، الظهر إلى المدفئة الكهربائية ، كانت تتابعني بعينين عميقتين وبلا لون ، لا تحتفظ على ظهرها الأهيف ، كعادتها ، إلاّ برافعة نهدين صغيرة بتخريم وردي .

هذه الليلة سأغير خمري . أحاول أن أسمع نواح السنونو أو الخفافيش .

كارين تحدثني عن التنقيب الأركيولوجي الجنائزي : اكتشفت مقبرة للخيول العربية تحت سقف الدير الكنسي لدير ادم . ضحكت عالياً . ولا أعرف لا كيف ولا لماذا طلبت من كارين أن تخلع رافعة نهديها الصغيرة بالتخريم الوردي المطرزة في الجوانب . بكت كارين . كما لو أنها كانت تنتظر منذ مدة طويلة هذه اللحظة ، لم تتردد كارين .

ربما تحبني ؟

لم أتفاجأ أن أجدها هكذا : بلا نهدين . النهدان مقطوعان من جذريهما . كنت أعرف بأنها ستحكي لي عن سرطان ثديها ، وكذلك قصة أمها ...

كانت نوبة تخاف دائما من سرطان الثدي . عندما تكون حائضاً ، تأخذ يدي ، وتضعها على نهدها الأيمن : «يوجد جسم صلب ، هنا ، لا ، هنا . قالت لي .

ـ لا يوجد جسم صلب في نهدك ، لا وجود للسرطان » ، وأضحك بملء حنجرتي .

يدي على نهدها ، أعريها ، أحب مضاجعة نوبة ، عندما تكون متعبة أو حائضاً .

وجدتها جميلة هكذا ، نوبة أو كارين بلا نهد . جنس آخر من الطيور ! أغير خمري . طويلاً ، أتأملها . أجدها جميلة . شبيهة بتمثال يوناني صغير لغانية

لم يعثر على جزء من صدرها أبداً . ولأول مرة تضاجعنا . لقد كانت بلا نهدين . لن تقول لي أبداً : «يوجد جسم غريب في نهدي .»

برؤيتها بلا نهد ، وجدتها جميلة ، جميلة جدا ، كما يجب ، شعرت بأني حر ومسترخ .

هذه الليلة سأغير وسادتي . ومنذ هذه الساعة فإن كارين أو نوبة لا يهم قد تحررت من رافعة نهديها ، من حكايتها وحكاية أمها الميتة بزغرودة في الحلق ، في موكب زفاف :

«لقد وضعوها في غرفة تبريد جزار مع بقايا ثلاثة ثيران . سبعة أيام من بعد ، الوقت الذي يستغرقه زفاف ، أخرجوها ، زرقاء ، كلها كانت زرقاء ، ليدفنوها حسب ديننا وإيماننا .»

منذ هذه الليلة ، كارين أو نوبة ، لا يهم ، قد تحررت أيضاً من المدفئة الكهربائية .

أشعر بالتعب . أفكر في تفاصيل لوحة جون سْتين معنونة *براحة المسافر*. أحب الذهاب إلى تدشينات المعارض ، أعشق شرب كأس من الخمر الأبيض أو القهوة وأنا أتحدث مع أشخاص لا أعرفهم : أهل الرسم ، كتاب سير رسامين (أولئك الذين أقرؤهم في المراحيض) وألوان السموات ، سموات الجنوب ، الشمال والشرق .

أفكر في ماسطرواني الذي لعب دور مورسو ، لغريب كامو ، هذا الأخير الذي فر من باريس ليلجأ إلى وهران : 67 شارع أرزيو ، وهران ، هذا هو عنوانه .

كان سرفانطيس يكره العناوين . من ميناء إلى ميناء . من يابسة إلى يابسة ، كان مسكنه في الريح وفي التيه .

تفاجـأت الواشمـة بهـذا الحضــور لصـديقتها القديمـة ، لآلـة ســانجرية ، أصـبحت المرأة السياسـية الأولى لهذا البلـد ، الأمينـة العامـة لاتحـاد النسـاء ، لقد افترقا في المرة الأخيرة منذ ثلاثين سـنة ، ربمـا أكثـر . كانتـا تشـتغلان في الغرفـة نفسـها ، في بيت بغاء متواضـع بعنايـة ، كـان الفرنسـيون وآخـرون يسـمونه قديماً بـون أو هيبـون ، مدينـة سـان أوغسـطين ، الـذي مـا زلـت أحـتفظ بعقيدتـه تحـت وسـادتي . باسـتثناء العطـر ، كانتـا تتقاسمـان كل شـيء : سـرير العمـل ، الملابس وأيضاً الزبائن أنفسهم الذين كانوا في أغلبهم رجـال سياسـة أصـليين أو أجانـب : إسبانيين ، مورسكيين وبعض الشيوعيين الفرنسـيين .

تسمى لالة يمينة ، لكن هذا اللقب سانجرية ، ألصقه بها يهـودي إسـباني ، معجب بغارسيا لوركا وبيكاسو ، شيوعي ناج من الحـرب الأهليـة . الـذي لا يحـب إلاّ شرب المشروبات الإسبانية السانجرية التي يحـب تحضـيرها بنفسـه . بفضـله بدأت سانجرية تهتم بالسياسية . كان أصدقاؤه ورفاقه يسـمونه سـبينوزا . يحلـم بأن ينجز فلمـا عـن مسيرة سـبينوزا ، هـذا الفيلسـوف المبعـد مـن المعبـد اليهـودي البرتغالي بسبب أفكاره العقلانية .

- سـبينوزا أو سرفانطيس ، سرفانطيس أو سـبينوزا ، أكـره (عطيـل) ، خـادم فنيس الغيور .

وفي أحد الأيام افتضـحت علاقتها العاطفية مع هذا اليهودي الشيوعي من قبل زبائن دار البغـاء ، جماعـة المتعاونين مـع الأمـن العسـكري للجنـاح الإسـلامي لجبهة التحـرير الوطني ، قررت إحالتها إلى المحكمة الإسـلامية التي حكمـت عليهـا بالإعـدام . غـيرت ســانجرية اسمهـا وغـادرت بـون إلى تـونس ، حيـث التحقـت بالمصلحة شبه الطبية للثورة في المنفى ، وأسست في الوقت نفسه فرقة مسـرحية

وأخرى موسيقية . خلال ستة أشهر دعيت مع فرقتيها إلى كل الدول الأوربية الشرقية ، وغيرها من الصين إلى كوبا ، في هذا البلد أحبت سانجرية الفودكا .

لا نغير الخمر ، الوسادة والعطر والنساء .

وفية لسبينوزا ، كانت تحب من وقت إلى آخر شرب كأس من السانجرية الدافئ لتوقظ أحاسيسها النائمة وذكرياتها القديمة المدفونة في المدينة المنسية ، في وهران وبون وكلوم بشار .

كانت تقول الواشمة إنها وردة فريدة وإن جمالها لم يتوقف خلال السبع سنوات لحرب التحريرعن تأجيج الشعور والنار بين شباب المقاومة المحاربين ، الذين كان كل واحد من ناحيته يحاول أن يريها ميله ويصرح لها بحبه .

الواشمة ، اعترفت بأن عدداً من مسؤولي الثورة كانوا يطلقون رصاصاً حيّاً على أرجلهم أو أيديهم ، من أجل أن ينقلوا إلى تونس ليبقوا قرب سانجرية ، التي تسلقت شيئاً فشيئاً أدراج سلم الاستحقاق الوطني واكتشفت «الرؤوس الكبيرة» في الصفوف العليا لقيادة الثورة .

لقد كانت سانجرية ذكية وفطنة ، بعقل قوي وحي يتجاوز كل الصعاب والعقبات . في أوقات السكر ، عندما تكون سانجرية منتشية ومكسورة تعترف بكل ما قامت به خلال الحرب ، لم تكن إلاّ طريقة للتعبير عن انتقامها ضد العالم الذي لا يرحم الذي يحيط بها ويقمعها . لم ترد أبدا إبدال وهران بتونس ولا الحياة بين يدي سبينوزا بأخرى في مستشفى ، في قلب الغابة .

لم تكن سانجرية تحب الحرب . ليس لها في القلب سوى جوهر العيد .

تقول الواشمة إن سانجرية ، لم تفقد صوتها الجميل ، كانت الوحيدة التي تنشد لنا مديح الرسول «ص» ، الشاي والبوخة (شراب معروف عند اليهود

التونسيين ، مستخلص من التين) ، في الساعات الطويلة والرطبة للقيلولات المتوسطية . كان لها الحظ والشجاعة أن تسجل أسطوانة من نوع خمسة وأربعين دورة ، التي أحتفظ بغلافها الملصق على جدار غرفتي ، مرسومة عليه صورتها ، بنهدين نافرين وعاريين . أسطوانة جارحة ،

أغاني عن حب الرجال ، عن حب الله ورسوله ، عن الخمر والوحدة وهرب الفتيات الجميلات والعذراوات .

ليحفظها الله ، إلى أبد الآبدين ، في رحمته الواسعة وفي ظله الرحيم . إنها ما تزال جميلة ، حيوية وفتانة ، هي التي خبأت لمدة خمس سنين سن اليأس ، أو أنها بالأحرى رفضت تقبلها . كانت تضع بين فخذيها كل عشرين يوماً ، ضمادات مبللة بدم البهائم . كانت تبكي مواعيد حيضها التي فاتتها ، دام هذا خمسة أيام وأربع ليالٍ .

مأخوذة بالعاطفة : ذاكرة المكان ، روح المكان وحنين الأوقات القديمة الجميلة ، سانجرية لم تستطع إخفاء دموعها ، باستحضارها في خطلبها المكتوب على أوراق وردية ، عن دور كل النساء ، العاهرات والورعات ورئيسات الأديرة ، في تاريخ وطننا الثوري .

يا عاهرات كل البلدان اتحدن !

جميلة ، قنبلة أنثوية ، هكذا هي سانجرية . لم تخدعها السياسة ولم تجعل قلبها الهش يصدأ . كانت تلقي خطلبها ماسحة بنظرتها الرومانسية كل نوافذ الغرف المفضية إلى الساحة التي يجري فيها هذا الاحتفال الرسمي . ربما كانت تبحث عن غرفتها ، هنا حيث علقت خمس عشرة سنة جميلة من حياتها . إنها وفية للمكان ، لسبينوزا ولذكرياتها . كانت تقول : «لن أخدع أبدا ماضي .

الماضي هو ظلنا ، مستقبلنا الذي لا نخاف أن نفقده . يبقى الماضي المستقبل الذي لن يخوننا أبدا .»

عرفت من أول لمحة عين غرفتها ، هناك حيث كانت قديماً تتريع كغانية . الواجهة لم تتغير . ما تزال مبلطة بالخزف التركي أو الأندلسي ، بتزاوج رائع وكرنفالي من الألوان البحرية والصحراوية . من هذه المنصة الرسمية ، ناظرة لغرفتها ، شعرت سانجرية بأنها سُحِقت تحت ثقل ، أسقط فجأة كتفيها .

أنهت خطابها . كما لو أنها كانت ترقص ، انسحبت تحت وابل من التصفيق وهتاف الرجال والنساء ، تاركة مكبر الصوت للمشورب ، قائد الناحية العسكرية ، الذي صعد بتمهل الأدراج الأربعة للمنصة ، مرتدياً بذلة عسكرية ، الصدر منها والكتفان ترصّعت بمئات الميداليات والنجوم النحاسية الصفراء ، والفضة والثوب المكتوب بالعلامات والكلمات . كان العميد يبحث عن كلماته ، مرتجلاً خطابه . وعندما كان العميد يبحث عن كلمته ، وضعت المساعدة كمامة على الفم ، ونزل قبر الصمت . العميد والمنحدر من الشعب ، مثل كل جيوشنا المؤمنة ، طلب من الحاضرين أن يقرؤوا فاتحة القرآن ، كتاب الله ، على أرواح نساء كل مواخير الوطن المحرر والمستقل الشهيدات .

هذا اليوم التاريخي لتأميم هذا الماخور ، هو أو خطوة جبارة لثورتنا في نضالها الطويل ضد العبودية ، والإذلال ، والرق والهيمنة على الجسد الأنثوي ، قال العميد .

أرى هذا اليوم التاريخي لتأميم الماخور ، في أعين النساء كاليوم الأول للتحرير الوطني ، قال العميد . أمام شعار وطننا الحر ، الثوري والاشتراكي ، أدعو كل الحاضرين - نساء مأجورات ، القطاع العسكري ومناضلي الحزب

ومناضلات المنظمة الجماهيرية والاتحاد الوطني للنساء– أن ينشدوا النشيد الوطني بصوت مرتفع ، قال العميد . كانت الحاضرات والحاضرون أيضاً ، عسكريون ومدنيون يقرؤون الفاتحة بصوت منخفض . فجأة انطلقت موسيقى وطنية مرتفعة ، وانهمرت الدموع من أعين النساء المأجورات ومناضلات المنظمة الجماهيرية .

وأعلن العميد رسمياً الماخور مؤمماً :

«باسم الدولة الوطنية الثورية ، المستقلة والاشتراكية ، أعلن رسمياً تأميم الماخور لاك دوك »

هكذا أمم ماخورنا الذي ينتمي إلى مدينة سرفانطيس ، كامو والرميتي !

المشـريـيـــة

عندما أحكي لنوبة قصة الماخور ، أشعر بها مستورة بجلد ليلي ، مسكونة بالريح وزبد المرارة . آخذها بين ذراعي ، صـامتة ، السيجارة بـين الشـفتين . أقبل يديها الصغيرتين وثغرها ، المرسوم بدقة . عقارب الساعة مسعورة . الوقت يتمـدد ، الليل يطول وصمت الهاتف يظهر لي كهاوية فاغرة وبلا قعر .

.«العميد ، بحركة رئيس جوقة إمبراطورية ، يسـحب قطعة الثوب الـتي تغطي تسجيلات إشارة التخليد .»

يؤرخ هكذا وابتداء من هذه الساعة التاريخية ، قد غُيِّر اسم الماخور . وأصبح يأخذ اسم شهيدة تسمى ج . ب . ك . الثورة لا تنسى أبداً ملائكتها وشهداءها .

مـن هـذه الشـرفة المدوخـة ، أراقـب سـرفانطيس . إنـه وقـت سـرفانطيس ، المولود تائهاً . لم يعد أبداً وقت ميرسو ولا عطيل .

من ملف أحمر أخرج مـدير الثقافة والسياحة ورقـة وبـدأ يقـرأ القـرارات الأولى المتخذة مـن قبل الحكومة الثورية وغير المنحـازة ، تظهر التـزام ومشـاركة العـاهرات بإيمـان وحـب في المسـار الطويل للتشـييد الـوطني ، مـن أجـل مجتمـع متساو وعادل وثوري في طريق التطور .

«أولاً : حق الإضراب غير مسموح به في بلد ثوري واشتراكي .

ثانياً : تخفيض أسعار فيشات المرور كالتـالي : 50٪ بالنسبة إلى الشـباب المـدعوين للجـيش الـوطني الشـعبي ، 50٪ بالنسـبة إلى رجـال الشـرطة والـدرك

(ومن يتبع لهما) ، و25٪ لكافة الطلبة و50٪للطلبة الذين شاركوا في التطوع لصالح الثورة الزراعية ، و25٪ بالنسبة للعمال في الجنوب (المنطقة الحارة والبترولية) .»

«لمديرية الثقافة والسياحة سلطة منح بطاقة الانخراط بثمن منخفض لأصناف المواطنين الأخرى : مثقفين ، صحفيين وبطالين وأئمة ومساجين صيادين وغيرهم .»

صمت كبير مرٌ وحاد ، خيم على الساحة الصغيرة وبدأ يأكل المائة والثلاثين غرفة التي يحتوي عليها الماخور . الواشمة التي لها ضعف كبير ناحية الشوكولاطة أخرجت من حقيبتها اليدوية قطعة وبدأت تقضم أطرافها ، عقلها شارد وكان حزن يغطي وجهها ، الذي أصبح رمادياً بسرعة ، بتجاعيد عميقة في زاويتي العينين على الجبين .

لماذا أنا وحدي ما أزال أفكر في هذا الماخور ، في هذا المكان الشيطاني الذي نسيه الجميع أو كادوا .

لا ننسى المواخير ! إنها مثل العطر .

عندما لا تكون عندي صورة في مرآة الخزانة الخشبية ، أو بالأحرى عندما لا تعكس لي المرآة صورة امرأة ، صورة نوبة ، بشجاعة كبيرة أحاول أن أنظم المادة ، بطي الملصقات الملونة ، للقاموس الذي أعده عن الكتاب والمثقفين المغتالين في بلدي . أحياناً أحاول تغيير خمري . مرات أنظر إلى الخارج ، أجد نفسي محاطا بهذا الشتاء المثلج . مرات أخرى أبحث عن السماء فوقي ، تلك السماء التي لا وجود لها هنا .

كان كلب يئن في نومه ، كلب البواب ، أو ينهق كحمار .

«عندما ينهق الكلب فإنها علامة حدوث كارثة ، لا تتأخر في السقوط على رأس المؤمنين» ، كانت تقول لي جدتي ، التي لم أحبها أبداً .

«إنها الأخبار المتلفزة للثامنة مساء» ، قال الصحفي .

الصحفي المجمّل بدقة للقناة الوحيدة للتلفزة الوطنية ، يحاور مسؤول الحزب وسانجرية . أما بخصوص العميد ، فقد تغيب فترة ليبدل بذلته العسكرية . يفضل العميد الذي يحفظ فاتحة كتاب الله عن ظهر قلب

وأيضاً كلمات النشيد الوطني ارتداء البذلة المدنية ببسمة رومانسية . هذا الأخير يحب كثيراً أفلام وُولت ديزني : بوكهونط ، صوندريون وهيدي .

صرح العميد للصحفي المؤنث بأن الدولة الثورية تعمل من أجل وضع روزنامة منظمة ودقيقة بخصوص الحجم الساعي لعمل العاهرات : يوم بالنسبة إلى الشباب المجند ، يوم آخر للفيلقيين وثالث للقناصين وآخر للطلبة والخياطين ، ... إلخ .

وبما أن فرنسا عدوتنا ، سنصل إلى نظام خمس وثلاثين ساعة عمل يومياً .

بمجرد أن انتهى الحفل ، اجتاحت موجة عارمة من الشباب المجند الهائج الساحة العارية التي تطل عليها غرف المأجورات الملتصقات بالشرفات أو مقرفصات وراء الستائر المتسخة ، التي بالكاد تخفي الأسرة القديمة بفرشتها الملفوفة بالأغطية البيض والملوءة ببقع المني . لا أريد أن أنتهي من حكاية مسعود الأكبر .

«De que se trata، de Massaoud al-akbar o de don Quijote de la Mancha ? »

سـانجرية ، بعـد حـديث قصـير مـع الـرجلين ، قائـد الناحيـة العسـكرية ومسـؤول الحـزب ، عـادت إلى المنصـة لتسـتعيد الكلمـة وتعلـن للشـباب المجنـد : «باسـم الثورة الاشتراكية ، وباسـم الوطن المسـتقل والحـر مـن النصـارى ، وأيضـا من كل أشكال وقوى القمع أو الظلم الاجتماعي ، نعلن لكم ، أنتم الشباب المجند ، سليل مستقبل وازدهار الثورة وورثي الجيش الـوطني الشـعبي ، أن الـدخول إلى ماخور لاك –دوك ، المسمى الماخور الوطني . ج . ب . ك . ، مجاناً ، طلية يوم تـأميم الماخور حتى منتصف الليل بالتوقيت المحلـي ! هـذا اليوم الكبير لتـأميم الماخور يشبه تـأميم المحروقات . كل النسـاء المؤممـات تـحت تصـرفكم مجانـاً وهـذا حتـى منتصـف الليـل . إنـه أول خطـوة اشـتراكية وتقدميـة مـن قبـل الدولـة والعـاهرات لا يتـوقفن عـن مواصـلة معركـة الشـرف لبنـاء بلـد متطـور وثـوري ومـواطن متـزن وسـليم» . صـفق الشـباب المجنـد متـدافعين ومسـرعين الخطـى نحـو غـرف المأجورات . أما بخصوص النسـاء فقد قبلن رفع السـتائر الملوثة من الثوب المتسـخ لتنطوين علـى أنفسـهن ، في عمق غرفهن التي تتقشـر صـباغتها بالأبيض والأسـود الفـاتح علـى دعـائم النوافـذ ، في انتظـار الغـزاة المسـعورين ، الـذين تنبعـث مـن أجسادهم روائح العرق الكريهة والتعفن . انتلبهن خوف أزرق وعميق .

لأول مرة ، الواشمة تفكر في مغادرة المكان .

لا نغادر المكان ، نأخذه معنا أو فينا .

كانت تفكر في لون وساعة الموت ، هي التي تحتفظ دائماً بالابتسامة وبثقة كبيرة في المستقبل . لقد شعرت بأنها خُدِعت ، بل مطعونة من قبل واحدة من أكبر وأقرب صديقاتها .

إنها تقدمنا فريسة لجراء الجنود الذين يجهلون المضاجعة ولا يعرفون ولا معنى الجسد الأنثوي. شباب لم يضاجعوا إلاَّ الحيوانات: دجاج ثم ماعز وعضباوات أو بغلات قرع. لم يقبلوا امرأة أبداً ولا يعرفون إلاَّ أجساد أمهاتهم، أو في أحسن الحالات أجساد بنات أعمامهم الصغيرات اللائي ارتبطوا وتقيدوا بهن منذ الطفولة وتزوجوا بهن فيما بعد.

زواج البغلة!

الجنون! يفكون أزرار سراويلهم الممددة بين السيقان، قبل أن يتجاوزوا عتبات الأبواب المنخفضة للغرف المظلمة والرطبة والضيقة، أين تتكدس ذكريات الواشمة الحارقة والأخريات.

لم يتأخر مسؤول الحزب وقائد الناحية العسكرية في الالتحاق بامرأتين في غرفة واحدة، اختيرت مسبقاً بعناية من قبل مصالح الإدارة الجهوية للصحة، والأمن العسكري والمجلس الإداري والجمالي للجمعية، من أجل الترقية الجسدية وتكوين عارضات الأزياء، وكذلك مديرية الثقافة والسياحة، التي يفتخر مديرها بجدته ذات الأصل الإسباني.

أنا لم أحب أبداً جدتي، التي كانت بدينة وسمينة مصابة بداء السكري وغيورة من أمي.

فيما يخص سانجرية، أخذت مكانها في غرفتها السابقة. رافضة لبعض الدقائق استقبال أيٍّ كان، طلبت كأس شاي بالنعناع وسيجارة من الحشيش وبدأت تغني مديح الشاي ومديح سبينوزا، دون أن تستطيع امتلاك دموعها الحارة. الرومانسية! ثم غادرت الغرفة بعد أن صلَّت، دون أن تنسى صلاة المسافر: سجدتان كاملتان على الركبتين،

الـرأس يلمـس الغرانيـت بالمربعـات ، ورعـة مصـلية ، النسـاء اللائـي يمشـين سوياً على طريق الله !

قالت الواشمة : «هذه السانجرية ، لها قلب هش . إنها من جنس طيـور في حالة انقراض .»

جـــوج ومـــاجـــوج

قلت لنوبة أو لكارين : «استديري وأغمضي عينيك » ونوبة مثل كارين أدارت الرأس مخبئة العينين ، أصابعها تشبه أصابع عازف البيانو . وأنا أبول في المغسلة . أشتهي التبول في المغاسل من الخزف الصيني الأبيض ، والهولندي والياباني والليموجي والصاكسي السيفيري . . . ثم أغسل اليدين بالصابون المعطر . أحياناً عندما لا يكون هناك صابون معطر . أفرغ كأساً من الخمر أو الخل على بولي .

أحلم بأن أكون كاتب سيرة الله . هذه الفكرة الشيطانية خطرت لي ذات يوم ، عندما كنت أقرأ مجلة عربية ممنوعة .

نوبة ابتسمت .

أقرأ في المخطوط ، وعندما أقرأ هذه الصفحات الصفر ، نوبة أو كارين -لا يهم- لا تعرف ما تفعل بأصابعها (السبابة ، الوسطى والخنصر) لا تتوقف عن تغطيسها في كأس خمري وتمصها كقضيبات المثلجات ، بشراهة ورغبة جنسية .

أعلن الراديو الوطني موت المشنب . منذ الصباح لا يذيع إلاّ تلاوة القرآن ، كتاب الله .

أشتهي كتابة سيرة الله ، أعيد قراءة معاناته الموصوفة في الكتابات المقدسة ، خاصة في سفر التكوين .

انقطعت أخبار نوبة. وأنا، كسلحفاة عمياء، أنتظر في الشرفة المدوخة؛ الرطوبة تسقط على كتفي وعلى وجهي وعلى اللحية المحلوقة بطريقة سيئة منذ ثلاثة أيام وأربع ليالٍ. (لايا) دخلت في نوم مضطرب وكابوسي، كانت تصدر أنيناً من وقت إلى آخر مصحوباً بارتعاد جسدها البالوريني الصغير النحيف. أنظر إليها وأتأملها: لقد كبرت.

من الشرفة المطلة على الشارع المركزي والمزدحم لهذه المدينة المنسية، حيث أخذت مكاني كسلحفاة، أترقب رنين الهاتف. إن رائحة نوبة تسكن جلدي.

أفكر في هذا الماخور. لماذا أفكر في هذا الماخور؟

عندما أتعطش لجسد نوبة السكّر، عسل فريد، جميل ومتوحش، أحدوثات زياراتي الأسبوعية لنساء الماخور كانت تملأ رأسي،

وتسكنني. وعندما أحكي لنوبة مغامراتي مع عاهرات ماخور لاك دوك الذي أعيدت تسميته بعد التأميم «ماخور الشهيدة ج. ب. ك»، هذه الأخيرة، أخِذت بنار الغيرة الحارقة مزمجرة مثل نمرة ملكية. أحب النساء في الحالة الهستيرية للغيرة. لا توجد امرأة بلا غيرة.

عندنا، عاهرات الماخور لا يثرن الغيرة في قلب أمهات أطفالنا. إن كل شباب القرية المتزوجين حديثاً، يزورون الماخور ليلة قبل يوم الزفاف ليفحصوا مدى فعالية ذكورهم ويبرهنوا على رجولتهم قبل ليلة الزفاف.

في سن الخامسة عشرة، كنت تلميذاً نجيباً لهذه المدرسة، الماخور. رغم سنها المتقدم لم تكن لي أبداً فكرة استبدال الواشمة بامرأة أخرى. كنت أضاجعها، هي وحدها، واحدة وحيدة، إنها كأمي. لم أثْرْ أبداً من قبل الوافدات

الجديدات اللائي جُمِعْنَ من مقرات الأمن ، ومراكز إعادة التربية ، وبيوت البغاء غير المرخص لها ، هي التي لم تكن تنقصها الحظوة مقدرة بطول خطوط الانتظار الممددة أمام غرفهن .

كانت الواشمة تراني كابنها أو رجلها الصغير . وتعطيني النقود وكانت تشتري لي الملابس والأحذية التي كانت أكبر من رجلي ، وروايات بوليسية وكتب التاريخ حول حرب الجزائر وكتب سياحة ودينية جميلة ، لمكة واسطنبول . لقد كانت كريمة . لم تكن تتردد في الاتصال هاتفيا بالمسؤولين الكبار مدنيين وعسكريين ليعطوني تأشيرات إلى فرنسا وإسبانيا أو إلى القاهرة . هي التي كانت تشتري لي تذاكر الطائرة ، وهي التي كانت أيضاً تدفع لي ثمن المارلبورو وتذاكر السينما ، أنا الذي أحب السينما الإيطالية ، ماسطروواني الذي لعب دور مورسو لغريب كامو . كانت تدللني ، كانت خائفة أن أهجرها ، في يوم ما . لقد أدركت بأني وجدت فيها ، لا أعرف كيف ، متى ولماذا ، عبدة لي ، دائماً تحت رجلي . رويداً رويداً سيطرت عليها وشيئاً فشيئاً بدأت تطيعني . كانت تحب فيّ هذا الانفجار الدائم للابتسامة الصبيانية ، التي ترسم حفيرة على ذقني ، وطريقتي المسرحية التي أحكي لها من خلالها قصص الجبابرة بنهايات مأساوية . كانت لا تحب قصص الحب . كانت لا تتوقف عن البكاء عندما أغادرها لسبب ما . لم تكن تؤمن بالحب . كانت تكرر لي غالبا :

« الرجال غير أوفياء وأنذال »

... شعرت بأني وحيدٌ معلقٌ في الطابق السادس ، الوحدة تعذبني ، ومثل الواشمة أرغب بالبكاء عالياً ، وبأن يصل نحيبي إلى السموات ، هناك ، فوق كل قمم الجبال العالية جداً .

أبحث أين أضع هذا الرأس الثقيل، المملوء بالهموم، وهذا القلب المشقوق بالجراح والخوف.

أمي أو جدتي كانت تقول لي: « عندما ينهق الكلب كالحمار، فتلك علامة لعنة لن تتأخر في السقوط على رؤوسنا.»

... إنها الساعة !

من هنا من مكتبي أشم عطر كارين، التي منذ هذه الليلة التي تضاجعنا فيها لم تعد تضع رافعة النهدين. بدأت تشعر بأنها حرة طليقة. كانت تعبر موسعة الخطى، لا أعرف لماذا، الممر الضيق وغير المنتهي الذي يفصل الغرف التي حُوِّلت إلى مكاتب.

كارين هي ملاك دير آدم هذا. مصدومة ومتفاجئة، هذه الليلة، همست في أذني، وهي ترى لأول مرة ذكري: "هل هكذا هو ذكر المسلم ؟"

-"عندنا الجنس حلال"، أجبت.

كانت عينا كارين دائما محدقتين في آلتي الكبيرة. عينا كارين لا تتحركان إطلاقاً.. كانت كما لو أنها منومة مغناطيسياً، أكثر من حالة سكر. بتأن وحنان، مسكته بيديها البيضاوين والساخنتين: «لماذا قطعت له رأسه، إنه أبتر، هذا الطائر. سيبرد بلا قلفة.»

قالت لي كارين وهي غارقة بلا نجدة في كأس خمرها الخامسة: « سأخوض حرباً ضارية ضد الختان.»

وجدت الفكرة جيدة ومثيرة. فكرة فلسفية وهي بلا شك، يمكنها ولأول مرة في التاريخ، أن توحد الأصوات الرافضة والأصولية للمسلمين واليهود.

أنا ، ككل مساء ، مسكون بصورة هذا الماخور الذي نسيه الجميع في هذه المدينة المبللة .

المواخير كالعطور ، لا تنسى .

ما أثّرَ فيَّ في هذا الماخور -أحكي لنوبة أو لكارين ، لا يهم- هي شخصية قمر الماخور : رجل يعيش في غرفة كباقي المأجورات الأخريات . كان يتكلم بصوت أنثوي ويتقاسم مع النساء المراحيض نفسها . كان يتجمل وكان يرتدي سروالاً لصوقاً يعصر ردفيه . كانت تسميه المأجورات خيتي . مع أن ثمن لواطه مرتفع بالنسبة إلى ثمن النساء الأخريات ، كما تقول الواشمة ، مئات الزبائن يأتون خصيصاً ، مساء يوم الجمعة ليمارسوا الجنس معه . كان قمر الماخور يتردد كثيرا على تونس ليزور «مايول» ، الدار الوحيدة في هذه الأرض الإسلامية الشاسعة ، مختصة في دعارة الذكور ، أين يعمل حوالي خمسين مأجوراً ، كلهم ذكور ، خمسة عشر إسرائيلي وفرنسي وإيطالي ، وآخرون . كانوا يرتدون ملابس النساء .

كان قمر الماخور مؤمناً جدياً ، ربما بدا هذا غريباً نوعاً ما . يُتِمّ بانتظام صلواته اليومية . بين صلاتين لا يتردد في تدخين سبتي حشيشة الذي لا يغادر فمه إلاّ ليترك المكان لبعض الآيات القرآنية القصيرة للصلاة ، ويشرب بعض الكؤوس من غرّافته المملوءة على الدوام بالخمر الأحمر المجلوب مباشرة من الخزانات القديمة لحقبة الاستعمار الموجودة في ضواحي المدينة .

النجاح الباهر لقمر الماخور بعمله في الماخور يثير غيرة كبيرة شرسة عند النساء المأجورات . أمام غرفته خيط صف الانتظار يطول أكثر فأكثر يوماً بعد يوم ، خاصة أيام الجمعة ! بعض النساء في العقد الثالث من عمرهن لا يعملن

طيلة اليوم ، وبما أن المدير الجهوي للثقافة قد خرق القانون ، فقد خفضن سعر المضاجعة .

قالت الواشمة : قمر الماخور ، قد بنى فيلا من ثلاثة طوابق ، بيت بغاء بحمام تركي في السرداب هندسته مطابقة لهندسة الحمام الشهير لنورالدين الدمشقي الموجود قرب مسجد الأمويين ، على بعد أمتار من القصر الكبير العارم ، في المنطقة التي يوجد فيها سوق الحميدية . وظف أحد عشر كياساً لا يقتاتون إلاّ من الشعير والخرطال واللحم الخيلي الدامي . أما بخصوص الثماني عشرة ممسدة ، فقد جلبهن كلهن من حلب . هذه المدينة النادرة ، الغريبة والأسطورية حيث كل مغنيي الملاهي الليلية والمواخير يخضعون منذ الطفولة لتكوين أدبي ولساني صارم ودقيق .

دودة القز والجمّال

أرى في عيني نوبة نوعاً من النور الرباني . ألمس زبد بحر لا يلمس .

لا أغش مع الخمر .

أرغب بالتبول ، بالطبع ، في هذه المغسلة من الخزف الأبيض ، أسمع موسيقى التبول الدافئة على الخزف الصيني ، الهولندي والياباني أو غيرهما ، لا يهم .

انتبهت إلى أن نوبة أو كارين ، لا يهم ، تتعطر ، ليس لتثيرني وإنما لتخفي رائحة كلبها أو قطها المسمى أليس ، رفيقها لأكثر من ثلاث عشرة سنة . لاحظت أنها تخلط العطور ومعجون الأسنان . الثقة !

نوبة أو كارين بصوتها الجميل ، بقدها ، وبطريقتها تشبه هذه الزمرة من المسدات الحلبيات :

« ممسدات حلب هذا مكتوب أسود على أبيض في مخطوط وجد في قبر في ورشة البحث الأركيولوجي المأتمي- ينتمين كلهن لنوع من الطيور المنقرضة . يتابعن حمية دقيقة ، لا يأكلن إلاّ الخضر ، الجزر والثوم والسماني والحجل أو الحمام الطوراني المشوي جيداً في فحم الخشب النورماندي ، ولا يشربن إلاّ الحليب المخمر ، أو شراباً آخر يحضرنه بعناية ، مكون من خليط الكحول الطبية والشاي والسكر الخالص . المسدات مثل نوبة أو كارين ، لا يهم ، لا ينسين تناول ملعقة كبيرة من عسل النحل المتوحش ، عسل زهر الصبار يومياً وفي الوقت نفسه .

إنهن مثل طيور الجنة ، هؤلاء الحلبيات . . »

بقراءتي لهذا المقطع حول التربية الجسدية لهؤلاء النساء المنتميات لنوع طيور منقرضة ، أفكر في هذا الإعلان الرديء المتلفز حيث امرأة على إحدى قنوات التلفزة الفرنسية الخامسة أو على قناة أخرى ، لا يهم ، تنزع زر تنورتها ! طك . . . طك .

إنها المرأة البدينة ، المرأة-الطوبان التي أعطتني خلسة المخطوط الجميل المزين برسوم الستمئة ونوع واحد من الطيور ، وأيضا رسوم المسدات الحلبيات . قالت لي ، بعينين عسليتين محدقتين في قضيبي : «مخطوط قديم بعه في الجزائر ، في أفغانستان أو في العربية السعودية ، هذه الأيام هذه الأشياء باهظة ، إنها تجارة مربحة .»

شعرت أن دمي مُصَّ .

الميــت السعيــد

قبل أن تغادر بصفة نهائية عملها من الماخور، لكي تباشر إدارة البغاء بفيلتها، قمر الماخور كان يفكر في تأسيس حزب جماهيري كبير تكون مناضلاته ومناضلوه من العاهرات فقط والمتنكرات ولزبائنهن الأوفياء.

قمر الماخور عين رئيساً شرفياً لجمعية خيرية كبيرة تتكون من عدد من المتعاملين، الكل معني بالصحة العامة: علماء الجنس، مختصون نفسانيون وأطباء أمراض النساء وجراحون وعلماء الاجتماع وأطباء داء السرطان وصندوق التأمين عن المرض، صندوق التعاون، شخصيات مرموقة في عالم الاقتصاد والفن المسرحي. هدف هذه الجمعية إنشاء وتسيير «حمام رملٍ» مبني في الصحراء، يساعد النساء والرجال الهشين على استعادة التوازن الجسدي والمعنى الشاعري للحياة الجنسية. قمر الماخور عن طريق معارفه الكثيرة، يتمنى إنشاء حمام آخر في صحراء الفيافي العربية مخصص للسياح الأمريكيين، الألمان والشماليين الذين يعانون من هذا المرض المعاصر، ويضع تحت تصرفهم ممسدات مخنثات إيرانيات أو سودانيات. لقد زعزعت حرب الخليج استقرار المنطقة تماماً، جمّد مشروعه ودفن أحلامه في هذا البحر من الرمال الساخنة.

هذه الليلة اصطدت كارين، ليس بسبب بكائها المتواصل وبسبب استمرار غيرتها – قالت لي: لم أرَ جسدك من قبل أبداً – لكن بما أنها لا تتوقف عن الحديث

لي عن كلبها الذي اسمه اسم شخصية رائعة لقصة معنونة برجال *بلا نساء* لأرنيست همنغواي، كاتبي المفضل. لقد اصطدتها، ربما لأنها عاشقة لكلبها أو لكلبتها أكثر مني. قلت للبدينة، المرأة-الطوبين التي أبواها من أصل أمريكي: «آه الفرنسيون تأويهم الكلاب!» البدينة ضحكت عالياً، وعندما ضحكت وجدتها جميلة، جميلة جدا. أفكر في قيئي الأحمر ليلة رأس السنة على الثلج!

هذا الصباح، هابيل يتكلم بصوت مرتفع مع كارين التي عطرها قوي جدا، قوي جداً أكثر من العادة. أشم في جسدي رائحة كلب كريهة. أؤمن بالاستنساخ. أتصور نفسي مستنسخاً لكلب، كلب خامل مجرور من قبل عجوز لندنية، كيبكوية أو بروطينية.

هابيل بنبرة باردة، أخبر كارين بنبأ موت المرأة البدينة، المرأة-الطوبين، التي تسمى دوروطي. الأخرى، المرأة ذات الجينز المرقع في الردفين، بسماعها النبأ، أخرجت سيجارة وانسحبت حزينة في الممر الضيق وغير المنتهي. «إنها لعنة المخطوطات وعظام العرب واليهود. لقد وقعت على رأسها.»

«لقد وجدوها، هذا الصباح ميتة في قبر من أربعة مستويات، ممددة على العظام، المصاصة المصنوعة في مولينيكس ما تزال تشخر في يدها المضمومة جيدا»، قال هابيل.

ماتت البدينة، الآن، أتذكر ملامح وجهها، وجدت تشابهاً كبيراً بين جدتي وهذه المرأة البدينة. لم أحب أبداً جدتي. وبما أنها ماتت، هي أيضا، أتكلم بحرية، لا سور ولا سد يمنعني. لقد كانت غيورة قاسية مع أمي. كانت تتجسس دائماً على علاقة كنتها مع جدي، الذي عنده كل كلام الله في قلبه والذي مات وفنجان القهوة في فمه. في سنواتها الأخيرة أصبحت بدينة. لم تكن

تستطيع حتى المشي ، كانوا ينقلونها في نقالة بثلاث عجلات . كان بها داء السكري . لقد ماتت بسبب قطعة خبز علقت بحنجرتها . سمعت خبر موتها من أمي في شرفة حانة Africa . كنت بصدد شرب جعة مقدمة مع صحن حلزون ، عادتنا الوهرانية .

قهوة لنوبة ، جعة لي ، تحادثنا طويلاً خلال منتصف هذا النهار القائظ ، خلال هذا اللاشيء . أكملت جعتي مفكراً في جدتي . لم أحضر لدفنها . كان هناك عدد كبير من الناس ، حكى لي أخي الأكبر ذلك بعد أسبوع من الزمن .

انسحبت من القاعة بعد أن رتبت ملصقاتي حول كتّاب بلدي المغتالين . أفكر في الطاهر جاووت ، في زوجته ، في هذه الليلة حيث سجلت معه حصة عن نفسه للتلفزيون ، وأفكر في كأس الخمر التي تناولناها سوياً . لا أعرف لماذا ، بمجرد أن أفكر في الطاهر جاووت أتذكر حسين مروة الفيلسوف اللبناني العقلاني ، والمحب لابن رشد وسبينوزا ، هو أيضا اغتيل في بيروت في الثانية والثمانين من عمره ، ربما أقل بقليل ، ربما أكثر بقليل .

خفت من الملصقات الملونة . أفكر في التخلي عن مشروع القاموس عن الباحثين في هذا الفضاء الأسود .

عدت إلى غرفتي المرتفعة ، لأن المرأة-الطوبين ماتت ، لزمت الصمت ، حضرت لنفسي القهوة . في اليوم الذي علمت فيه بموت جدة نوبة ، رسالة وردت من عند أخيها حملت إلينا هذا الخبر ، نوبة ، حزينة وباكية ، طوت الورقة . وأنا ، تسللت إلى المطبخ لتحضير القهوة . عندما قدمت الفنجان إلى نوبة ، صرخت في وجهي : «ماتت هي وأنت ترتشف

بلـذة قهوتـك » لا أخفـي علـيكم : أحـب شـرب القهـوة السـوداء مـن دون سكر في أيام الحداد .

أشم رائحة الكلب فيَّ ، في جلدي . أنا بحاجة إلى مزيل الروائح . أبول في المغسـلة ، محـاولاً قتـل رائحـة الحيـوان المنتشـرة في الغرفـة بالرائحـة الحامضة لبولي .

لقد كانت مستقيمة وأنيسة ، (المرأة-الطوبين) . كانت تسير إلى حيث تقودها المصاصة .

هـذا المسـاء ، مـع أن البدينـة قـد ماتـت ، حسـب هابيـل ، لـن أغـير خمري الإسباني .

قبليني يا نوبة .

مرة أخرى تسكنني صورة الماخور . أنزل من الأزقة ، الدروب الضيقة لسيدي الهواري . أنا وقع خطى ميغال سرفانطيس ، الذي يحب أن يرمي بنفسه في الأسوأ ... مثلما يرمي نفسه في الفرح :

«أُطلِق سـراحه في سـنة 1580 ، بعـد خمـس سـنوات مـن الحـبس في الجزائـر العاصـمة . مفتونـاً ، عـاد سـرفانطيس إلى الأرض الأفريقيـة ، وهـذه المـرة إلى وهـران . هـاو للثـورة ، للتيـه أو ببسـاطة لجلـيس ، لقـد زُوِّدَ برسـالة مصـداقية مـن قبـل حـاكم سـاحة وهـران وأمـر لأمـين الخزينـة صـارف رواتـب القـوات الملكيـة ليعطيـه خمسـين دوكـا لمصـاريف الطريـق . في وهـران ، نسـج سـرفانطيس صـداقة تواطـؤ مـع الحـاكم ، هـو أيضـا محبـوس قـديم في الجزائـر العاصـمة . قضـى ثلاثـين يومـاً في وهـران ، كـان سـرفانطيس ، مخطوفـاً بـالمجتمع الـوهراني وفي هـذه المدينـة الشمسـية ،

كتب مسرحية، *الجندي الشجاع*، وصية إنسانية قدمت بطريقة رائعة إلى شعب وهران الصغير.»

..أحد المارة كان سكراناً يترنم مبولاً على الجدار الكبير المبلل والمتسخ الذي يُسَيِّج الماخور. هذا جدار يشبه لجدار ثكنة. حزينة، كئيبة ومتعبة، كانت الواشمة مسمرة في نافذتها، تنظر إليه والعينان دامعتان والقلب مجروح:

«لا أحد يتجرأ أن يبول على هذا الجدار، المشيد في العصر التركي العثماني. عندما ضرب المدينة زلزال كارثي في سنة 1790 كل شيء تحول إلى ركام، فقط الجدار هو الذي بقي صامداً، ومنذئذ، وهو واقف يحرس إلى أبد الآبدين» وكتب سرفانطيس: *وهران محروسة كدجاجة تحرس كتاكيتها*.

الأوقات الماضية لليالي الموسيقية: الأصوات الجميلة للفتيات اليهوديات السديميات والحالمات الخارجات من حكايا الجنيات، والراقصات البربريات بِخُمُرِهِن المعقودة حول خصورهن وأردافهن، وروائح البارود وعطر الحشيش والقوالون والشعراء الذين تخرج من أفواههم كلمات مملوءة بالسحر ويغمرها الحب كفراشات حول نجم، والأواني *المصنوعة في الصين*، من الخزف بصور جميلة للطواويس طيور أخرى خرافية لها خمس أو ست أرجل ورأسان وثلاثة أزواج من الأجنحة، وألوانها صفراء وبنفسجية وزرقاء، كانت الأواني المملوءة بالنبيذ الأحمر أو الوردي، تنتقل من فم إلى فم. النساء المعطرات بفساتين وهرانية وعنابية أو بربرية لم يتوقفن عن إطلاق القهقهات. أما الرجال فلا يتكلمون إلاّ عن الأشياء المخالفة وغير المطابقة: الأسفار إلى تونس، إلى القاهرة وحتى إلى الخرطوم،

أنواع [لا أحب هذه الكلمة] الخيول والكلاب والكتب التي تتحدث عن النساء : «المرأة التي لها فم عريض يكون فرجها ضيقاً وصغيراً وساخناً» المأجورات ، في الوقت نفسه ، وبحركة واحدة متماثلة ، يحاولن إخفاء أفواههن بكفوفهن أو وراء المروحات الجميلة المصنوعة في الطيوان . التي يمسكن بها طيلة السهرة لطرد الحرارة والناموس ومن أجل بعث رسائل إلى زبائنهن المفضلين .

وتحكي الواشمة عن الليالي التي كان لها طعم العسل الخالص أو عطر قصة حب جميلة بلا نهاية ولا بداية ، التي بطلها ليس سوى سرفانطيس ، المملوء دائما بالمغامرات والأحلام والكلمات ، لا يعيش إلاّ على ظهر فرسه أو على جسد عشيقته .

كان سرفانطيس يكتب : وهران ، مدينة منخفضة ، بأزقة ضيقة متسلقة ومعذبة .

المار يبول على الجدار الأصم ، والجدار يعطي ظهره لوابل البول الساخن للسكير ، بلا رفض وبلا أي اعتراض ! الجدار العالي الذي كان قديماً يقف ليحرس خان ذاكرته وذاكرة المأجورات !

لا تبكي يا مواطني العزيز ، سرفانتيس .

يوم آخر ، قلت لكارين ، التي لا تتوقف عن مضاعفة عطرها وحفظ القصائد الطويلة عن الكلاب والرجال التائهين :

وسط الساحة ، ثلاث وافدات جديدات يتحدثن عن تعزيز الحزب السياسي الجديد ، حزب الله : «هو وحده قادر على تحريرنا من الذل الذي نكابده من قبل جنود ورجال الحزب الواحد» ، كانت تشرح امرأة قصيرة للأخريات .

«سنفتح بعون الله وحزبه قاعة للصلاة» ، واصلت المرأة القصيرة .

أخذَت الواشمة بضحكة جنونية ، انسحبت وراء مغاليق الشباك ، متابعة حديث النساء الثلاث أو الأربع عبر الثقوب .

«5 أكتوبر ، نهب المركز التجاري لجزائر العاصمة»

«6 أكتوبر ، أحرق عدد من العمارات العمومية»

«8 و10 أكتوبر ، يطلق الجيش النار على المتظاهرين في العاصمة .»

«يمتد الهياج الشعبي في كل الجزائر»

«الحديث عن خمسمئة قتيل»

«تشكل لجان للتنديد بممارسة التعذيب»

«الفوضى والرعب هما سيدا البلد .»

«لا شيء سيكون مثلما كان قبل أكتوبر !»

.. الرجل الذي كان يبول على الجدار ، والذي يشبه سرفانطيس ، وضع قطعاً من الكرتون على الرصيف وتمدد عليها واتخذ نعليه الفاسدتين وسادة ، وعيناه محدقتان في الأنوار المتسربة الآتية من الغرف ، حيث ما تزال المأجورات تستقبلن آخر زبائنهن الليليين .

لماذا أفكر في هذا الجليس سرفانطيس ، لماذا أفكر في الجحيم ؟

في قاعة صلاة الماخور

أتهيأ هذا المساء لأحكي لنوبة أو كارين ، لا يهم ، قصة السائحة الأوكرانية ، التي تسمى لوفا ، التي صادفتها في مسجد الأمويين في دمشق : لوفا ، هذا الاسم يعني المطر باللغة الروسية ، لست متيقنا من هذه الترجمة ، تحب الشمس وتأخذ صور الغبار الذي يثيره الأطفال الفلسطينيون في مخيمات

اللاجئين ، (اليرموك) ، (الطبالة) أو (فلسطين) الموجودين في ضواحي دمشق . هذه المرأة تدفن في عينيها النار والصاعقة . في الخارج الجو حار . لوفا ، مطر الصيف نزلت من سماء إلهية . كنت بحاجة إلى رائحة أنثوية . في كل مكان من هذه المدينة ، ليس هناك إلاّ أعين الشرطة . في الوقت الذي التقيت فيه بلوفا ، فكرت ولا أدري لماذا ، في المؤرخ الشهير لهذه المدينة ابن الصغير (توفي في سنة 1176) كتب : «دمشق هي بوابة الجنة ، هي المدينة الأولى بعد الطوفان التي أقامت جدارا ، وهنا أين وقعت معركة قابيل وهابيل .»

هابيل أيضا اسم رئيس فرقة البحث الأركيولوجي المالتي .

لوفا تعني المطر بالروسية ، أنا متأكد ! حتى ولو كانت الترجمة خاطئة . لوفا تحب القدس . فهي تشبه وابل مطر . تؤمن بالله ، ولو أنها عضو في الحزب الشيوعي . أفكر أيضا في جورباتشوف ، الذي شارك كممثل في إعلان عن بيتزة هوت . تباً ، لقد فقدت خيط حكاية لوفا . نوبة أو كارين ، لا يهم ، تنظر في عيني . أحب شرب الخمر من قنينتها البلاستيكية مباشرة .

حسب قوانين وزارة الشؤون الدينية لدمشق ، يمنع على كل امرأة من سن الحيض إلى سن البلوغ تجاوز عتبة المسجد بلا خمار . ملفوفة في فستان أسود لتلج هذا المكان المقدس ، كانت تثيرني لوفا في فستانها الأسود ، اليدان بيضاوان بلون الثلج ، تتجاوزان قليلا الكُمّيْنِ العريضين . الجن يسكن المساجد أيضاً . وأنا يعوي في داخلي ذئب بنغالي جائع ، وكانت تشعر بنظرتي مملوءة بالنار والشهوة . كنت أفترسها . غادرت غامزة لي في هذه الشمس الحارة لشهر تموز . كنت أتابعها في أحد متاجر سوق الحميدية ، شارع مبلط ، مظلل ومكتظ . في

الحشد ككلب بلا رائحة افتقدتها . عدت إلى بيت الله للقيلولة تحت رعايته الله في ظل الأقواس الرطب . أنا متأكد من أنها ستعود .

نعد الوقت بعدد القيلولات . هناك نساء يشبهن الصواعق ، لوفا واحدة منهن . سبع قيلولات مرت والثامنة سقطت لوفا من السماء ، مطر دمشقي مفاجئ . لوفا حقيقة . خلال ثمانية أيام ، كنت أسرق بعض النقود من أجل شراء السندوتشات وبضع زجاجات العرق اللبناني المباعة لي سراً ولمعارض إيراني لحزب توده الشيوعي . من هي هذه المرأة الجميلة التي أشد على يديها الباردتين بين يدي المرتجفتين ؟

كنت في صمتي ، أمشي بجانب نوبة وقلبي يحترق في جحيم اشتهائها ، أتكلم عن هندسة هذا المسجد ، بيت الله ، الأدب العربي والأدب المغاربي اللغة الفرنسية وكتب محمد الديب ، ورشيد بوجدرة وأمين معلوف وعبد اللطيف اللعبي ... أقول أي شيء ، أعيد لساني إلى فمي . سامي أو صامويل الذي يعرف الروسية يترجم جملي المتقطعة . عرفت سامي في ظل أقواس هذا المسجد حيث يشغل منذ خمس وعشرين سنة منصب وثائقي المكتبة . لقد كان الإيراني المعارض هو الذي قدمه لي . كان يتكلم الفرنسية أيضا ، هاو لفلوبلير وألفريد دي موسي . منذ أن تعارفنا لم يتوقف عن الحديث عن روبيس بيير ، عن الشذوذ الجنسي لجون سيناك ، الشاعر الجزائري المغتال في السبعينيات . العرق يصعد إلى رأسي . ألمس يدي لوفا . إنهما باردتان يديّ لوفا . لم ترفض يدي ، لوفا تحدث سامي . إنها هناك . اكتشفت أن سامي ثرثار وعبيط . دخلنا في المكتبة أين يشغل سامي الثرثار منصب الوثائقي . زوّرنا جناح المخطوطات (مخطوطات أيضا ، أغلقت كتاب مسعود الأكبر) . ظلام وبرودة القاعة أثار فيّ رغبة تقبيل لوفا .

صـاموبل الثرثـار كـان يتحـدث عـن هـذه المخطوطـات ، اكتشـفت ثقافتـه ومعارفـه العميقة في التاريخ المكتوب . ضجرت لوفا . كان سامي الثرثار يتكلم بلا انقطـاع ، بالروسـية والفرنسـية وكـان يعطـي الأوامـر بالعربيـة لـبعض الموظفين الآخـرين . ضممت لوفا إليّ ، سامي الثرثار كان يتحدث بل كـان يعطـي درسـاً في تـاريخ فـن التجليـد : التجليـد بـالحَوَرِ ، بالسِـخْتيان والقَضِـمِ والـرَقِّ والجلـد المحبب ، وجلـد العجل . قبلت لوفـا ، لا أدري عمـا كان يتحدث عنـه صـمويل . عريت هـذه المرأة ، لا أدري ماالـذي كـان يتحـدث صـمويل . ضـاجعتها ، لا أدري عمـا كـان يتحـدث صمويل . كانت المرأة تغنج ، وصمويل الأبله يتحدث عن مخطوطاته ، عن الـتراث ، عن الذاكرة الجماعية كان صمويل يعطي درساً متقناً ! كنـت أنظر إلى فمـه الـذي يتحرك شبيهاً بشـيء ، أي شـيء بلا شكل ولا تناغم . كنت أحس بـالمرأة وبرائحـة المخطوطات الشبيهة برائحة جـوارب متسـخة وتَخَمّرٍ . كان صـمويل ينظر إلينـا ، أغلق الباب كي لا يزعج المرأة . تمددنا علـى الأرض علـى بعـض المخطوطات ، علـى التراث ، وعلى المعرفة وعلى الذاكرة الجماعية . لم يعـد سـامي الوثـائقي يـتكلم أبـدا . لم يعد لديه ما يترجم ، ولا ما يقول . الصمت وغـنج لوفـا وحضـور سـامي الأبلـه . أسمـع غنج المرأة التي تشغل حجرة المصعد . كان سامي مربياً للقطط ، له قطيع من خمسـين قطـاً ، مـن كل الأنـواع ، [أكـره هـذه الكلمـة] ، في شـقته الموجـودة علـى سـطح إحـدى العمارات القديمة في دمشق العتيقة . عنده أيضـا مكتبة في البيت ، وكتب بثلاث لغات : العربيـة ، الفرنسـية والروسـية . إنـه طيـب هـذا الصـمويل ، هـؤلاء الرجـال مـن طينـة أخرى . لقد تضـاجعنا في مكتبته . لم يرفع الصوت . إنه هكذا هذا الصـمويل .

هذا المساء ، لـن أغير لا الخمـر ولا القنينـة ، مـع أن البدينـة قـد ماتـت . لقـد اغتيلت ، ربما ، من قبل هذه المرأة بسروال الجينز المرقع على الردفين .

«... المنشورات التي وصلت إلينا من الأمير أبو الحيدر لجهة وهران، تطالبنا، كانت تشرح لنا المرأة القصيرة، أن نقوم بالمستحيل من أجل إقناع المأجورات وجرهن إلى الصلاة»

«يجب الاستيلاء على مكتب النقابة وتحويله إلى قاعة للصلاة. إن كل النقابيين شيوعيون أو يهود.»

واحدة من النساء الثلاث انسحبت لتستقبل زبونها الليلي.

الزبائن منذ أمس لم يتوقفوا عن الحديث عن فتنة عنيفة. الحرب الأهلية على الأبواب. المرأة القصيرة أكدت لصديقتها بأنها الفرصة وإلاّ فلا للخروج من هذه الوضعية المزرية.

عمت الاضطرابات والتمرد والدعوة إلى العصيان المدني والمواجهات والحرائق كل المدن.

ما زالت الواشمة تتذكر الأحداث الدامية المقترفة من قبل O . A . S. في سنة 1962 التي كانت تقلق هدوء الزبائن مثلما هو الشأن بالنسبة إلى نساء الماخور المأجورات.

قالت الواشمة: «ليحفظنا الله برأفته ورحمته».

توجد وراء هذا الماخور جبال من الأوساخ أين وُجد عدد من الأجنة والمولودين الجدد ملفوفين في أكياس القمامة من البلاستيك الأسود. لم يكن للشرطة حتى الوقت لفتح محضر لمثل هذه الأحداث: أحداث شرف، أحداث الأطفال غير الشرعيين والأمهات العازبات، وقائع مختلفة لملء صفحات الجرائد المحلية.

على كرتونه المريح، سرفانطيس السكير، كان يحلم بجسد أنثوي قادر أن يبعث فيه زفاف أسفاره وتيهه في أفريقيا السوداء وفي بلدان البهار الأسود

والفول السوداني. توقفت عربة شرطة أمامه، نزل منها شرطي، غير بعيد من رأس امرأة جميلة تذكره بليالي وحدته الطويلة والمرعبة، كان الشرطي يبول على الجدار المبلل، المتسخ والمقشر«شرررررررر».

كان سرفانطيس ينام في حلم: نشوة الجعة الوهرانية (BAO) مجلوبة من حانة صغيرة مليئة وغاصة بالنساء، وبالأغاني والأعياد، أين كانت قديماً خمارات المتوسط الجميلة التي مباسطها من الزان بلون كانت دائماً مدهونة ومبرنقة بطريقة عالية. وتبقى مضاءة حتى الفجر، تغلي بأصوات البحارين والأجانب وعمال الأحواض والوهرانيين.

يوم مقصلي آخر:

أغلب هذه الخمارات والحانات تحولت إلى محلات شبه فارغة، أو إلى وكالات عقارية حيث يباع الحشيش وتسجيلات خطب الجمعة الأخلاقية الملقاة من قبل دعاة مسجد كابول (بلكور) في الجزائر العاصمة أو مسجد الكرمة في وهران، وإلى مطاعم صغيرة. أمام الأبواب يصطف الناس في طابور طويل، الصف الذي يتمدد ويتمدد. يقدم إليهم الطعام واقفين أو جالسين، لا يهم، على مصطبات قديمة، أكتافهم متلاصقة بعضها ببعض، ممسكين بأيديهم المرتجفة صحوناً من البلاستيك المقوى بها فاصولياء بيضاء غارقة في مرق أصفر مزعفر مع قطع صغيرة من الباذنجان الأفريقي.

هناك بعض الخمارات التي حُولت إلى مدارس قرآنية مختلطة حيث يتكدس مئات الأطفال، أعمارهم تتراوح بين ثلاث وست عشرة سنة. في غمرة التلاوة الجماعية بصوت مرتفع لكتاب الله، الفقيه الذي قلبه مملوء بكلام الله، يضرب التلاميذ الصغار: بنات وبنين. الآباء يسكتون لا يستطيعون مواجهة

الفقيه ، الذي قلبه مفعمٌ باللغة العربية لغة الله ورسوله . الأمهات قلقات في صمت والأطفال الصغار خائفون .

أمام نافذة هذه الطالبة الداخلية الجديدة ، التي قامتها قصيرة بشكل ملحوظ ، كان منشوراً على حبل غسيل أخضر من البلاستيك قفازان ومنشفة وردية ملطخة بالمني . في المقابل ، على الشرفة ، امرأة في العقد الثالث من عمرها جافة من الصبر والرغبة ، مسكونة بخوف مرضي من الموت .

مسبحة بين الأصابع ، كانت الفتاة القصيرة توزع مباشرة على الفتيات في المدرسة الداخلية نسخاً من القرآن مطبوعة في طشقند . هناك في طشقند في أرض الإسلام البعيدة ، تتفتح وتكبر أكثر فأكثر التجارة الكبيرة الجديدة للقرآن ، لم تعرف أبدا منذ خمسة عشر قرن . كان تجار الحرير والسلاح والبن والفستق والمخدرات من كل الجهات والمعتقدات وكل الجنسيات يهتمون كثيرا بالتجارة الجديدة ، تجارة القرآن ، لا يترددون في استثمار رؤوس أموال . لقد جلبوا آلات طباعة عملاقة عالية التقنية ، مصنوعة في ألمانيا ، تعمل ليلاً نهاراً على طباعة كتاب الله بماء الذهب . آلاف النسخ مطلوبة مسبقاً من قبل زعماء أحزاب سياسية شيشانية ، أوزباكية وجزائرية وأفغانية وبريطانية وأمريكية . فهي أيضاً معروضة للبيع بطريقة أنيقة في المكتبات الكبيرة للمقاطعتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة للحزب . بيعت مرفقة بأشرطة سمعية مجانية للدعاة الأكثر تشددا : علي بلحاج ، رشيد الغنوشي ويوسف بدراني وغيرهم .

أسلمة الماخور

كانت الواشمة في هذا المساء حزينة ، كئيبة ويتيمة . ضمتني إلى جسدها الذي بدأ ينزل في هوةِ السنين المرتجفة . كانت تشتمني ممررة يدها على عيني المفتوحتين ، على خديَّ وعلى يديَّ شارحة بياضها ونعومتها : «إن يديك مثيرتان أكثر من جسدك ، فهما مصنوعتان من شهد نحلة ملكية .»

ساكن ، كما لو أنني في حالة رعب ، كنت أجد كلماتها التي تُهْمَسُ في أذني مؤثرة وشاعرية . هذه الليلة لن تدع أي عضو من جسدي بلا مداعبة ولا تقبيل . كانت تريد بلا شك الاحتفاظ في ذاكرتها بصورة وشكل جسدي . قالت لي بصوت رباني ، هادئ وحلوٍ :

«أحب التفاصيل المنسية ، الأشياء الصغيرة المنثورة على الجسد : حبة الجمال تائهة في الظهر محكمة الصنع أو على الأضلع المملوءة المشكلة جيدا ، بقايا ندب صغيرة لجرح في الركبتين قديم يعود إلى سن الطفولة الشيطانية ، بقعة بيضاء صغيرة على زاوية الإصبع الصغير للرجل اليسرى ..»

كانت تتكلم كما لو أنها في حالة ما وراء السكر ، بصبها على جسدي العاري ، الممدد والأعزل ، وبلا مقاومة ، العطور الرفيعة التي تهوي جمعها ، مرتبة بشكل جيد في خزانة من زجاج ، مملوءة بالمرايا : Poison، Anais ، Chanel ، Yves-Sain-Laurent وغيرها من القارورات التي لم أستطع قراءة علاماتها .

قدمتها إلى حافة الجنون ، حافة الشعر وإلى عمق ذاتها . كان رأسي يقذف كريات نور وردية وزرقاء ... قوس قزح .

قلت في نفسي : هذه الواشمة ، سليلة سرفانطيس ، التي قلبها أبيض كالحليب ، ستنهي أيامها في النار أو في الجنون .

معجم المحققين في محاكم التفتيش

هـذه الليلـة ، سـأرتب ملصـقات المعجـم . أتممـت للتـو تصـحيح النسـخ الأولى . قـرأت لكارين فقـرة صـغيرة لمعجـم آخـر معنـون ب : معجـم المحققـين في محاكم التفتيش ، نشـر في سـنة 1494 ، سـنتان بعـد خـروج العـرب واليهـود مـن غرناطـة ، أحـب أن أقـرأ بصـوت مرتفـع بمجـرد أن أشـعر بلـون الخمـر الأحمـر يستقر في لساني :

«هي ، المرأة [هذا ما هو مكتوب في المعجم] لا يجب أن تدفن في الكنيسة برأس عار ، لكن مغطى بخمار ، ما دامت الخطيئة قد دخلت العالم عن طريقها .»

سألت نوبة : «هل لساني أحمر ؟» وفتحت فمي . وقرأت ، رفعت صوتي نوعا ما ، دائما من المعجم نفسه ، الذي نشر بعد سنتين من خروج العرب واليهود من غرناطة ، المعجم معنون ب [أعرف أنـي قـرأت عليك العنـوان] معجـم المحققـين في محاكم التفتيش :

«الله منح المرأة الضفيرة لكي يكون لها لباس فلتتذكر ، بذاتها خضـوعها . إن المرأة التي تقص شعرها هي كمن خفف ثقل لعنة ملعون .»

.. أضـناه مـرض غريب ، يتجلـى بخـوف وحـدة مفـزع . كـان يبحـث عـن العـيش تحـت أجنحـة الغـير ، منـذ مراهقتـه لم يعـد يسـتطيع النـوم بمفـرده في سـريره . كـان يتقاسـم مـع أختـه السـرير نفسـه ، حتـى المـوت المأسـاوي الملتبس

والمبهم لهذه الأخيرة . إن العلاقة السرية والغامضة التي كان يقيمها مع مسؤول كبير في الجيش سمحت له بأن يعمل بطريقة نظامية في الماخور ويصبح مأجوراً كباقي كل النساء . وظف المسؤول الإداري المكلف بالمواخير قمر الماخور ، في دار الرحمة ، بوثائق حالة مدنية أخرى ، وثائق أخته . سُجِل تحت اسم : «فاطنة بنت علي الشاوش» .

أخته فاطنة ، بمجرد سماعها الخبر ، طالبت بنصيبها من كل ما يملكه أخوها . لم تتردد في رفع شكوى ضده ، بقيت دون متابعة ، وخُنِقت من قبل المسؤولين المدنيين والعسكريين الكبار للمدينة .

بقي موت أخته لغزاً ، لا الشرطة الجنائية ، ولا الدرك استطاعوا أن يعثروا على القاتل . بعد ستة أشهر من البحث ، صُنِف الملف : «قضية انتقام للشرف» .

كانت عين قمر الماخور يقظة على كل الوطنيين .

المرأة القصيرة التي تتحدث ، تكتب وتقرأ العربية الفصحى جيداً ، كانت تشرح للفتيات الأخريات

الوافدات الأخيرات وصايا «حزب الله» الموجهة إلى المؤمنين ، من أجل إنقاذ البلد وانتزاع السلطة من أيدي الملحدين . الفتاة التي كانت تقرأ في جريدة النافوخ طالبة سابقة في كلية الحقوق ، وإدارية لدى كاتب إسلامي مالك بن نبي الذي كان يبعث لها كل أسبوع برسالة ، مكتوبة بعربية كلماتها منتقاة بطريقة مضبوطة ، ومنقوشة ومنهوكة في المعجم الكبير ، في سبعة عشر أو اثنين وعشرين مجلداً كبيراً ، المعنون بـ*لسان العرب* ، كتبه اللغوي والنحوي الكبير ابن منظور . دفعها صمت مالك بن نبي المر إلى عمق الليالي الخطاءة .

«في سنة 1968 ، قالت المرأة القصيرة ، تلاميذ مالك بن نبي ، فتحوا أول مسجد حر ، في المحلات القديمة لمصلحة حفظ الجثث في كلية الجزائر العاصمة ... من مصلحة حفظ الجثث إلى الماخور ، إنه طريق معركتنا المقدسة ضد الملحدين ، الذين يتزوجون بأخواتهم !!»

منذ يومها الأول في الماخور ، حاولت أن تنسج علاقة خاصة ومحصورة مع قمر الماخور الذي كان في البداية لا يأبه لهذه «الحركات» ولا «للأشياء» الصغيرة للمراهقين ولا لطلبة كلية الأدب الجامعيين ، وشعبة اللغات الأجنبية الحية ، لكن خلال أسابيع قليلة بدأ قمر الماخور يهتم بهذه الفتاة . لم يتوقف عن الترديد أمام المأجورات الأخريات بأنه يتمنى أن ينهي حياته في السياسة ، كان يقول دائما : من ينجح بعمله في الماخور يستطيع ، وبسهولة أن ينجح في مهنته في «السياسة» ، ليست السياسة إلاّ دعارة من نوع آخر . إنشاء وتسيير دار بغاء أعقد وأصعب من تأسيس حزب سياسي ، الذي يمكنه بلا أي عرقلة أن يقدمكم كمرشحين للانتخابات .

«مصطفى بويعلي قاض غابات الإسلاميين ، قتل في 3 شباط سنة 1987» ، قالت الفتاة القصيرة .

لقد غرق رأس قمر الماخور في السياسة !

هذا القبيح طموح ! صوته مفصول عن الجسد ، فهو تارةً واضح ، أنثوي وقوي ، وأخرى غير مدرك وعنيف ، يتسلل إلى الجسد ، مسبباً قشعريرة في البدن . كان قمر الماخور يميل بندم وأدب كبيرين إلى اقتراح شغل منصب إمام الماخور ، المقترح من قبل الفتاة الملفت للنظر قصرها .

مع أنه حفظ بعض السور القرآنية في طفولته في المدرسة القرآنية للقرية ، كان قمر الماخور لا يتكلم إلا الفرنسية والعربية العامية المختلطة بعبرية يهود جربة تونس . إمام ، قال قمر الماخور ، إنه من يعرف قراءة وكتابة لغة الله ، وجنته ورسوله . لا يمكننا إدخال ولا جعل الآخرين يدخلون الجنة بلسان رومي ملحد في الفم والقلب :

«أنا مستعد للذهاب إلى مسجد القرويين في فاس أو الزيتونة أو حتى الأزهر الشريف في القاهرة من أجل اختيار إمام محنك ليؤم صلاة مؤمني الماخور ، إنها ثورة إسلامية حقيقية . أنا مستعد لدفع ثمن له بالعملة الصعبة : الفرنك الفرنسي ، الدولار الأمريكي أو الين الياباني أو الروبل السويدي . أنا قادر على جلب أحسن إمام عالم

في عصرنا قادر على إصدار الفتاوى التي تنافس الداعية المصري المنافس ، الذي لبى دعوة السلطة ليساهم بمواعظه ، ودروسه في جامعة قسنطينة الإسلامية وحصصه المتلفزة ، ضامن ديني لنظام ملعون ومرتش » .

أحد الدعاة المصريين ، الشيخ الغزالي العضو النشيط للإخوان المسلمين ، جاء لإنقاذ ومساعدة الشاذلي ولم يتوان في إصدار فتوى ، داعياً فيها السلطات عبر المحطة التلفزيونية الوطنية ، التي يستغلها أكثر من رئيس الجمهورية ! أن تمنع دفن الكاتب كاتب ياسين في الأرض الجزائرية ، بمقبرة العالية بحجة أنه كاتب ملحد .

كانت الاجتماعات تتضاعف كل ليلة في غرفة المرأة القصيرة الملفتة للنظر ، كان قمر الماخور : يفضل أن يحضر ، لكن دون أن يقول شيئا أو يعلق . قال قمر الماخور في السياسة لا يجب الحديث كثيراً . كان يتابع بحذر ما كانت

تمليه عليه الفتاة القصيرة ، التي كان يتقاسم معها السرير نفسه . لم يعد يخفي شيئاً من علاقته عن أعين المأجورات الأخريات .

قال بوجه تقي وحزين وعينين دامعتين :

«وجدت أختي فاطنة ! الله الأكبر ، الرحيم والغفور لن يترك المؤمن بلا أخت »

كان يقضي لياليه عندما لا يكون له زبائن ، بين نهديها ، مستنشقاً رائحة لحم ملطخ ، مستيقظاً في قلب الليل صارخاً :

«ها أنت فاطنة ، ها أنت يا أختي ، لم أقتلك ، ملعونة اليد التي تقتل أختي » .

ضباب من الناموس يمطر على الماخور . صيف بارد واقف على عتبة الأبواب السبعة للمدينة ، التي تفقد أكثر فأكثر الألوان السحرية لسمواتها وروائح شوائها الشهية ، اللحم المحشو وأطباق السمك المقلي المحضر من قبل المعلمين الكبار الإسبانيين واليهود التونسيين .

الإسفـــنج

بمـا أن هـاتفي قـد مـات ، فـإن الفونـوغراف الـذي كـان يبث قـديماً الأغـاني الجميلـة لعيسـى الجرمـوني (المغـني العربـي الأول الـذي غنـى في الأولمبيـاد) ، الـرميتي ، سـاريزة ، فضـيلة الدزيرية ، رينـات ، بكـار حـادة ، السـانجريا وماسـيكا التونسية . هذه الأخيرة قد أحرقها حية في تونس الرجال الظلاميون للمنطقة ، قد قتل نفسه . أعلنت إدارة الماخور الحداد ثلاثة أيام لذكراها وروحها الكبيرة ، حيث عملت النساء بلا تجميل ، بلا اغتسال ولا موسيقى ولا مشـروبات كحوليـة . كل المـأجورات كـن متـأثرات بعمـق بهـذه المأسـاة «العائليـة» . فليحفظهـا الله الغفـور الرحيم إلى أبد الآبدين في فسيح جنانه بجنة عدن .

الفونـوغراف القـديم اسـتبدل بقارئـة أشـرطة جسـيمة الصـوت إلكترونيـة بمكبري صوت كبيرين وقويين أسودين ، مصنوعة في اليابان . لم تتوقف عن بث سورة يوسف عليه السلام الجميلة المجودة من قبل المجود المشهور

للقرآن الكريم ، عبد الباسط عبد الصـمد ، الـذي تـوفي إثـر حادثـة سـير في المغرب ، مملكة صديقه الحسن الثاني .

وراء السـتار الشفاف المطبَّع بزخارف كبيرة من الزهور ، في الطابق الثاني للمـاخور ، تحـت الضـوء الهـادئ لقنـديل دمشـقي قـديم ، مـن الخشـب والرخـام ، مصنوع باليد ، يميز خيال حليمة العنابية الرقيق والمتعب ، الأكثر ديناميـة من بين المـأجورات ، سـيجارة الحشـيش بـين الشـفتين البـدينتين المجملـتين بطريقـة عاليـة

بلون بنفسجي جنسي ، وحدها أمام مرآة خزانتها ، في حالة رعب ، ترقص السالسا . كانت ترقص على وقع التلاوة . الشريط حيث صوت المستمعين ، جمهور المؤمنين المثار بالتفاصيل الوصفية الشهوانية لقصة حب جميلة وغريبة عاشها يوسف عليه السلام وزليخة زوجة العزيز الضابط الكبير عند فرعون مصر ، صعد صارخاً ، مثلما في حفلة ساهرة لأم كلثوم أو محمد عبد الوهاب :

«الله . . . الله . . . آه ه ه ه ه ه ه»

أيام الجمعة ، بين الواحدة والثانية والنصف ، كانت قارئة الأشرطة الجسيمة الصوت تبث تسجيلات الخطب الأخلاقية المضجرة الملتهبة الملقاة من قبل الدعاة العنيفين ، المندفعين والمسعورين . وككل جمعة ، يوم المسلمين ، يوم الصلاة الكبيرة ، وكعادة قمر الماخور ، بمساعدة المرأة القصيرة ، جلس وراء الطاولة الصغيرة ، على عتبة باب قاعة الصلاة ، التي كانت تستعمل قديما قاعة شرف حيث كانت قوادة الماخور تستقبل الباشوات والبشغات والقواد والضباط الفرنسيين . كانت المرأة القصيرة تمسك بيدها (جهاز الكنترول) ولم تكن تتردد في إعادة قراءة بعض الآيات القرآنية التي تظهر لها مثيرة ، أو بعض المقاطع العنيفة لتسجيلات داعية ألقاها في مسجد السنة في الجزائر العاصمة .

مسمرة في نافذتها المطلة على الساحة ، كانت الواشمة حزينة فاقدة الرونق وجافة وذابلة ، كانت تتابع بدقة يد قمر الماخور الذي كان يداعب ويحك بعنف الأجزاء التناسلية للمرأة القصيرة . مسكونة ومأخوذة بالصوت البهي ، الغريب والمثير للقارئ المصري عبد الباسط عبد الصمد ، كانت حليمة العنابية وراء الستار الملوث والمغبر غارقة دائماً في رعبها ، عائمة في محيط رقصها ، تستعيد الأيام القديمة الجميلة حيث كان الفونوغراف القديم يشتغل بالبطارية

المسطحة يبث الأغاني الجميلة للخمر ، ولأحلام الرجال المغامرين ولمسافرين غير حقيقيين في (Buenos dias mi amigo Cervantès !) بلدان عجيبة . التسجيلات التي كانت تبثها هذه الآلة الملعونة ، المصنوعة في اليابان ، قارئة الأشرطة جسيمة الصوت الإلكترونية بامتياز ، لا تذكر إلا بالقبور والجحيم والكفن والدم .

مع الواشمة أحس بأن القيلولة قصيرة جدا ، ومع نوبة أشعر بأن الليل قصير جداً من أجل كأس خمر .

كنت أشرب من فمها .

أعرف أنكم ، لم تحاولوا أبداً شرب كأس خمر من فم امرأة جميلة .

أنا ، في هذه الغرفة ، أشرب من قنينة بلاستيكية خمراً إسبانياً رخيصاً .

في الخارج جبال القمامة ترتفع أكثر فأكثر وراء الماخور وعلى السلالم الرخامية ، في مدخل المسرح الذي يغلق أبوابه منذ سنة ، بعد النفي بالجملة لمثليه (سلام على روحك يا علولة ، السلام على روحك يا سيراط) والقاتل مخرج كبير .

الخلية المكلفة بتسيير قاعة صلاة الماخور أعلنت للمأجورات بأن قمر الماخور ، الذي يسمى عمود الماخور ، قد ذهب ليتم الركن الخامس من الإسلام ، الحج . يحكى أنه ذهب إلى مكة مشياً على الأقدام .

حزب الله كان يستعد للانتخابات البلدية بمضاعفته الحملات والاجتماعات والتجمعات في الملاعب والمساجد والأسواق الأسبوعية ، في المدن والقرى والأكفار وفي المقاهي ، والحانات والحمامات والمواخير . الدعاة والمناشير يضاعفون الفتاوى ضد الفنانين ، الأطباء والكتاب والنساء والصحفيين .

كانت الفتاوى تنهمر على الرؤوس !

من هنا، من هذه الشرفة أو منذ الثامنة مساء وثلاث وعشرين دقيقة أترصد رنين الهاتف، أسيطر على هذه المدينة بلا ملامح، بلا عطر وبلا سرفانطيس : بعض اللافتات القديمة المظلمة، المصابيح المحرقة وزجاج مكسر، تبقي على أثر إعلانات تعود إلى مرحلة الاستعمار : إعلان عن بيع بثمن منخفض لسجائر الباسطو وتبغ بن شيكو وجريدة صدى وهران وفندق رويال .

زاوية جدار أعيد طلاؤها لإخفاء إعلان عن نوع من الجعة .

كنت أسمع صوت الواشمة التي كانت تقول لي : «أرغب في شرب كأس من البوخا الذي يتسلل مباشرة إلى دماغي »

أشعر بالعجرفة في هذه المرأة . في المستشفيات حُوِّلت مصالح حفظ الجثث إلى قاعات للصلاة .

طقطقة الآلة الراقنة الآتية من قاعة صلاة الماخور كانت تصل إلى الطابق الرابع . كان مناضلو حزب الله يحضرون لوائح أعضاء حزبهم للانتخابات المحلية . نظام مطلق، بل طاعة عمياء لكل ما يأتي من «السماء العالية» أين يحكم أميرهم، ظل الله في الأرض .

كمشة من المتطوعين، رجال ونساء يخطون آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة على لافتات من ثوب الكفن الأبيض. خط رديء !

في البلاد، كما في الماخور بل في الماخور كما في كل البلاد الأشياء تتحرك والناس يحضرون أنفسهم .

الباشا

المرة الأولى التي أنزل فيها إلى الماخور ، كانت من أجل الاحتفال بأول كمية نقدية سقطت في يدي : منحة طالب ، مائة وسبعون ديناراً . هكذا تعرفت على هذه الواشمة ، وكانت المرة الأولى أيضاً التي أضاجعها فيها ، أو إنها المرة الأولى التي أجامع فيها امرأة ، نعم امرأة بنهدين ، وبرافعة نهدين وفرج محلق بطريقة سيئة . خِفْتُ ، الجنس في هذه اللحظة بدا لي بأنه شبيه بالختان ، ألم ممزوج باللذة والخوف .

وجدتها كأمي ، القلب مملوء بالحنان . شريط كلمات مقفات ، ملفوفة في موسيقى هادئة ، تخرج من أعماقها ، أسرتني ، بوابل من الكلمات . مصعوقا بالجمر الإلهي لحسنها ونبل حركات جسد يحظى برعاية فائقة واليدين ببياض الحليب ، لم أستطع الوصول إلى ذروة النشوة الجنسية . كنت فوقها عاجزاً . لقد كان لي إحساس بالخوف ، بالعار أو الخجل .

كانت صورة أمي تتضاعف فيها . هذه الأم ، جميلة ومغرية ، التي رفضت بأن تكون لليالي أبي ، له ... له وحده .

إنهم أنانيون ، الآباء !

منذ ذلك اليوم ، أقل فرقعة للمفرش لها بالنسبة لي معنى . إنهم متعطشون ، الآباء !

في المرة الثانية التي ذهبت فيها لأرى واشمتي، وجدتها مغلقة على نفسها في غرفتها مع مُشَوْرَبٍ قوي وكبير. أحسست أن كبريائي أغمس في الطين. سريعاً قرأت وفهمت تصرفي: سبب غيرتي، حجة غضبي وحزني. وكطفل مدلل، أخذتني الواشمة بين ذراعيها وقبلتني بقوة على الخدين وفي تجاويف الأذنين وعلى الجبين. كنت على وشك البكاء وكانت غصة في حلقي: «كيف أن سيدة جميلة وهادئة كالواشمة، تجرأت على خيانتي مع هذا البغل الكبير؟»

لقد كانت قلقة، خامدة وصامتة. من قنينة نصف فارغة قدمت لي كأساً من النبيذ الوردي. لقد كان أول كاس خمر لي، أول مرة أتذوق الحرام، الخطيئة. الكأس بين اليدين كنت أرتعد، العينان مغمضتان هكذا، بلعته دفعة واحدة.

«كنت عطشانا، قالت الواشمة...»

ذلك اليوم، أصبحت رجلاً! ذواقاً لفرج المرأة، فرج حقيقي!! وخمر القنينة.

ذلك المساء، في غرفتي الجامعية، نظرت طويلاً في المرآة. كنت أبحث عن شواربي.

«الحقيقة في الكأس»، أضافت واشمتي.

لم أفهم فلسفتها، الكبيرة على رأسي.

كنت أنتظر مفعول الخمر بقلق وخوف، وقد بدأ يتسلل ببطء إلى مخي الناعس والخامل. أحسست بالتنمل والوخز في رجلي.

واشمة وهي ترتشف خمرها كانت تنظف أعضاءها التناسلية في دلو من البلاستيك بلون أزرق غامق. كنت أشم رائحة الصابون الرفيع ممزوجاً برائحة

أخرى ، رائحة البول . أحسست برغبة في التبول . أرغب بالتبول في مغسلة . كنت أسمع هدير الماء الدافئ بين يدها البيضاء المغرية وفرجها الكبير ، البدين والمحلق جيداً . كنت منزعجاً من هذه الحركات الفاسقة ، طأطأت الرأس ، دافنا بصري بين رجليٌ . كنت أفكر بأمي ، في هذا الصوت لهدير الماء الدافئ للوضوء ، فليك فلاك ، مغروف من آنية ، بين يدها اليسرى وفرجها الوردي المحلق بطريقة سيئة .

بعد أن غسلت نصفها السفلي ، بلا أي تحرج في عينيها ، اللتين تشبهان عيني قطة متوحشة لم يكن لحضوري أي اهتمام واستثناء- ، ممسكة في يديها منشفة كبيرة من القطن (نوع من المناشف التي تستعمل في الحمام) كانت تحك بقوة بين فخذيها وردفيها البيضاوين ، المقولبين جيدا .

كنت أحب سماع هذه الموسيقى لطقطقة الحلي .

لم يترك كأس الخمر المُبَرَّد أي مفعول في هذا الرأس من الرصاص الذي يجثم على كتفي وعنقي . عيناي دائماً منخفضتان ، مسمرتان على طاولة منخفضة مدورة ، لا يترددا من حين إلى آخر في التحليق ، نظرة خاطفة على جسد الواشمة الذي يشبه جسد غانية إغريقية ، التي تزين صورتها غالباً كتب التاريخ المدرسية أو الطوابع البريدية في الحافظات البلاستيكية المتعددة الجيوب لهواة جمع الطوابع البريدية الشواذ جنسياً . الصابون الرفيع المستعمل لغسيل الأعضاء الحميمية لم يغطٌ رائحة هذه الغرفة النتنة والمبللة الخانقة ، التي سقفها قصير تشمل سريرا كبيرا بأرجل طويلة من الحديد الصدئ ، شبيهاً بأسرة المراقد في الثكنات . حقيبة كبيرة من الألمنيوم البراق مغلقة بقفل من نحاس أصفر كانت مدسوسة تحت السرير ، في الداخل كرسي من الخشب وطاولة صغيرة مربعة الشكل ، وخلف الباب ألصقت حاملتان للمعاطف من البلاستيك الأسود والرمادي .

كأس النبيذ يتسلل ببطء إلى الدماغ .

الأرض تتحرك تحت رجلي .

على الجدار ، بالضبط فوق مرآة مشققة روزنامة قديمة مسمرة من إنجاز الشركة الوطنية للمحروقات ، مزينة بفقرة من خطاب الرئيس، محتفلاً بذكرى تأميم هذه الشركة . الجمل المنتقاة تعبر عن حقد كبير تجاه فرنسا الكولونيالية .

كانت الغرفة تخنقني . الأشياء القليلة في هذه الغرفة ، كانت تتحرك أمام عيني . صبت لي الواشمة كأساً آخر من القنينة نصف الفارغة ، ونصف المملوءة . جرعته دفعة واحدة . كانت صامتة ، هادئة ومترنمة . بردت ركبتاي . كانت الواشمة تنظر إلى نفسها في المرآة ، كنت أنظر إليها ناظرة لنفسها . كانت تبحث عن شيء مخفي بين العين والجبين .رفعت بصري المكسور من الحياء أو الخجل نحوها ، ذبابة زرقاء كانت تحوم حول الكأس الفارغة والحزينة مثلي .

«لا توجد الحقيقة في الكأس .»

لاحظت أنها تبكي بلا دموع . لا أدري ما أفعل ، بدوري بدأت أبكي دون أن أبرح مكاني الذي التصقت به منذ وصولي ، هنا ، في الركن الأيمن للسرير الذي أرجله عالية . حذائي المغبر بالكاد يلمس الموكيت المنزوعة في المناطق المبللة والمملوءة ببقع القهوة والخمر وصلصة الطماطم والمني .

كنت ككلب ضال ، بلا جنس [لا أحب هذه الكلمة] مرعوباً ، الذيل بين الأرجل ، واليدان مضمومتان جيداً بين ساقي . لا أعرف أين أضع هاتين اليدين ، اللتين أجدهما غالبا ملتصقتين بأضلعي معطلتين زائدتين عني .

لست رومانسياً ، لكني أبكي الواشمة . امرأة مثلها تستحق الدموع الحارة لرجل ذاق الفرج والخمر .

في الوقت الذي نضاجع فيه امرأة ، نعرف في صفوف الرجال ، بأننا كبارٌ . لنا الحق حتى في حلاقة زغب الوجه !

أخذتني الواشمة بين يديها الرحيمتين والرفيقتين . عطرها الذي لا أعرف اسمه ، أيقظني ، إذاً ، استقر كأسا الخمر في دماغي ، هناك حيث يجب .

أحب روائح الماخور .

تجنبت هاتين العينين الشبيهتين لعيني أمي ، قبلتني بقوة قائلة لي بنبرة هادئة ومليئة بالسخرية :

«أحذرك بألا تقع في حب عاهرة حتى ولو كنت أنا .»

رفعت عيني المغرورقتين بالدموع نحوها ، مطلقاً نظرة ملفوفة بتعبير بارد وأخن . الآن أحس بالخمر يسري في رأسي ، «لا أحب أحداً إلى هذا الحد ، الحب هو أكبر كذبة تنمو في كتب القصص المكتوبة في المجلدات العديدة المزخرفة جيدا !»

ضحكت عاليا ، مرتاحة لرؤيتي باردا : «آه الرجال كلهم أنانيون وغيورون !»

الكوجيتو :

أنا قادر على أن أجعل قضيبي ينتصب ، إذاً أنا رجل .

قلت في نفسي : «هذه المدينة قادرة أن تسحر كل من يتجرأ على المغامرة فيها .»

أحسست أن فمي بالنسبة إلى الواشمة كان له مذاق فم صبي أو طفل صغير .

من مكاني ، هنا ، على زاوية هذا السرير المتوحش ، مكان المضاجعة حيث ترك سبع مائة وثلاثون ألف رجل منيهم ، وعبر مربعات النافذة المكسورة المطلة على الساحة ، كنت أفصل أشكال وألوان فسيفساء جدارية مدهشة ، معلقة بمتر فوق مستوى الباب الكبير من السبك الفني الذي شكله المقوس (أندلسي – عثماني) : ثعبان بالريش بصدد بلع طائر حي ، حمام طوراني مرعوب ، حجلة تقطقط ، شجر زيتون متوحش ، وياسمين وزهر النسرين والقرنفل والزغد وساق أنثوية عارية مقولبة جيدا ، وحلي فضية بربرية وأحجار كريمة وسماء زرقاء وآية قرآنية كريمة أو حديث شريف : «الله جميل ويحب الجمال» ، مكتوبة بخط أندلسي أو بغدادي ، دن خمر بلون بني مؤطر برباعية الشاعر الفارسي الكبير عمر الخيام :

يرمى في النار ، يقال ، من يشرب الخمر .

إنه افتراء بعض العقول البشرية .

إذا رمي في النار العاشق وشارب الخمر

ستكون الجنة فارغة كيدي .

كعادتها ، وككل زيارة تأخذ الواشمة رجلي بين يديها ، ثم بحنان تضعها فوق فخديها وتبدأ في تقليم أظافري . أعرف أنها تبين عن رغبة جنسية فيما تفعله . أنا أيضاً كنت أشعر بإحساسٍ اللذة يكبر أكثر . الشوارب أيضاً كانت تنمو حتى هي أكثر . كانت ترنم لي غالباً بمقطع قصير من أغنية بحارة إسبانيين . كانت تجد في رائحة رجلي ، مسكناً لإطفاء معاناة عميقة : حب مكسور لصياد ماهر ، مغامر وقرصان الذي دفنه البحر في الموج وفي الأغاني .

قرعت امرأة الباب . كانت تحمل في يدين يميز أصابعها أصفر السجائر الزعفراني ، علبة وقنينة نبيذ أجنبي وخرطوشة علب سجائر مارلبورو . أنا لا أدخن . ولكن بمجرد أن نضاجع امرأة فإننا نصبح رجالاً : نشتري فرشاة الحلاقة لترغية دهن الحلاقة ، نحلق وجهنا ، وعانتنا ، يجب إذاً أن ندخن . السجائر ملفوفة للرجال !

اليوم ، وجدت علبة أمام باب شقتنا المعلقة في الطابق السادس : صابون المرحاض ، ثوب كفن وقارورة صغيرة من العطر الرخيص تستعمل لغسل الموتى ، بلوم بلوم وجملة مكتوبة بعربية فصحى على ورقة مقطوعة من دفتر مدرسي بالمربعات : «إنها نهايتك ، ملحد »

المرأة التي دخلت جد متأنقة . تكلم الواشمة بفرنسية بنبرة إسبانية . صوتها الخافت والعذب يتجاهل وجودي تماما . أحسست أني تكلست أني زائد ، لا شيء . فهمت أن هذه المرأة التي دخلت للتو هي حليمة . التي لا تتوقف عن الرقص .

«شيء ما يحدث في الأسفل ، في الساحة» ، قالت حليمة .

ألقت الواشمة نظرة علي ونظرة أخرى فضولية على الساحة الصغيرة : قد تجمع أناس كثيرون ، رجال ونساء ، مأجورات وغريبات ، كان المكان مزيناً بالرايات باللون الأسود والأخضر : التي بالألوان الخضراء مصدرة بصورة قرآن موضوع على ميزان ، يرمز لعدالة الله ؛ وعلى التي بالألوان السوداء مكتوب بالأبيض : «بسم الله الرحمن الرحيم ، الله أكبر» . نساء ورجال ملتحون

ينتعلون نعالاً مطقطقة أو خفوفاً مغبرة من البلاستيك ، بالألوان السود أو الرمادية كانوا يتدافعون في الساحة . من بينهم ، شباب متعطش ، الأعين

مغمورة بالشهوة والمني ، لم يترددوا في أن يلقوا من حين إلى آخر النظر الملتهب على أجساد المأجورات المسمرات والحزينات وراء نوافذ غرفهن المظلمة ، نظرة صياد ، نظرة ثعلب .

كانت الأجنبيات المتحجبات بالأسود يزغردن وهن يَقذفن في الهواء قطع السكر حب القمح المحمص . قارئة الأشرطة الجسيمة الصوت المصنوعة في اليابان ، بمكبري صوتها الكبيرين ، كانت تبث بالتناوب الأناشيد والقراءة القرآنية .

لا أعرف لماذا ولا كيف وجدت نفسي العينين ملتصقتين بنافذة حليمة ، متمنياً مباغتتها وهي بصدد الرقص على إيقاع الأناشيد .

هذه المرأة قادرة أن تُخْرِجَ الفرحة من خشب ومسامير نعشها .

«حليمة امرأة من عجينة أخرى ، عجينة نادرة أو فريدة» ، كررت لي الواشمة .

حليمة وضعت قنينة الخمر على الطاولة المنخفضة ، دون أن تعير أدنى انتباه لحضوري غير الدال ، أنا في عينيها لست سوى لا شيء ، بغل قذر ، كالآلاف الآخرين : «الخمر هو بلدي الوحيد . قلبي لا ينام إلاّ في كأس . لا أحد يحاسب الشاربين وخاصة الشاربات .»

أتذكر بأني قرأت ، في مكان ما ، تعبيراً شبيهاً بتعبير دانتي الإيطالي .

... شيء من هذا النوع .

أشعر كأني لا شيء على لا شيء .

للرجال ، أيضاً ، همومهم

قالت حليمة للواشمة : «إنه عائد» قمر الماخور ، لابساً قميصاً بطوق ماوي ، مصنوع في الصين ، منسوج من خيوط الحرير الحقيقية ، بلون أبيض ثلجي ، مشترى من الأسواق المتازة الكبيرة من البقاع المقدسة : مكة ، المدينة أو الرياض التي أغلب تجارها دمشقيون ، حلبيون أو أجانب .

النساء يثرثرن .

الرجال- أعين تنظر .

الواشمة مدفوعة بالفضول ، تحني الرأس نحو الساحة : في الأسفل ، الحشد يتكدس . النساء يثرثرن . لحيته زادت بعض السنتمترات أكثر .

تبعا للاستهلاك الكبير للهرمونات الجنسية الأنثوية (جريبين والجسفرون) ، لحية قمر الماخور لا تكبر إلاَّ ببطء ، على شكل زغب خفيف متناثر على الوجه الأمرد المؤنث .

النساء الأجنبيات يحملن خمراً سوداء ، كن مظلمات وحزينات . تؤازرهن حوالي عشر مأجورات ، لم يتوقفن عن الغناء والرقص فرحاً بعودة قمر الماخور هناك البندير والغيطة ، النساء يرقصن ! الرجال ، أعين الشيطان ، يخفضون أعينهم من أجل اجتناب «المحرم» وأن يقاوموا فيهم إبليس المغوي ، هكذا ! يداعبون لحاهم الطويلة ويحكون بقوة أعضاءهم التناسلية ، كما لو أنهم أصيبوا بطاعون بقري ، هكذا !

قمر الماخور ، عائد من الحج المتم على الأرجل أو على ظهر عضباء غالية . بعد ستة أشهر من الغياب ، استقبل في الماخور كمبشر . كان على يساره مثلما على يمينه ، امرأتان ورجلان يحاولون فسح المجال له في الحشد ، ليلتحق بقاعة الصلاة التي يجتمع فيها كبار مستقبليه ، وطنيون ومحليون منذ ثلاثة أيام وأربع ليال .

الآلة رونيو تدور ، تتقيأ نماذج عدة من لائحة المرشحين للانتخابات البلدية . قائمة يقودها قمر الماخور : الحاج محمد بن محمود ، على رأس القائمة . إنها المرة الأولى منذ خمس وثلاثين سنة ، يستعيد قمر الماخور اسمه الحقيقي ، محمد بن محمود . كان حزن بلون الرماد يغطي ملامح الواشمة ، دافناً آخر شعاع في العينين . قبلتني قائلة :

«المدينة باردة ، المدينة جائعة وقلوب الكلاب على عتبة الباب .»

لم تعد تتكلم . إنها تهذي . إنها شاردة . كنت أنظر إليها دون أن أقول شيئا ، وجدت نفسي مكلساً أو ضعيفاً .

من سماء الله الخالية ، يسقط المساء فجأة كجثث متعفنة على الصرح ، على الماخور . خيط كهربائي بحوالي مائة مصباح بألوان متعددة : بيض ، زرق وحمر وخضر ، معلقٌ في الساحة . كمشة من الرجال كانوا يضعون قطع الخشب على روافد ليركبوا منصة ، وحوالي عشر نساء يقدمن الكسكسي في قصاع كبيرة للضيوف الجالسين أرضاً على شكل دائرة ، بأفواج من ثمانية أشخاص . الملاعق في الأيدي !

قارئة الأشرطة الجسيمة الصمت المصنوعة في اليابان كانت تعيد بصوت مرتفع بث تسجيل سورة يوسف بصوت عبد الباسط عبد الصمد . كان القائم

على لوحة التسجيل بلحية تصل صدره ملصقاً نظرة مرعبة وفاجرة بشرف المأجورات .

حليمة ، امرأة من نار وفرح ، التي تحب الرقص على إيقاع أغاني الشيخة الرميتي ، ليلي بونيش أو بكار حادة ، كانت تجمع حقائبها باكية . السنونو تهاجر .

«إلى أين ؟» سألت امرأة أخرى .

في الأسفل انتهى العشاء . من الشارع يسمع جمع الملاعق والصحون الألمنيومية . القائم على لوحة التسجيل يرفع صوت الآلة .

كانت النساء تنظفن الأواني .

كانت المرأة القصيرة تنتظر كما لو أنها على النار ، مفاجأة هذه الأمسية الأخيرة للحملة الانتخابية . كانت متلهفة ، لم تتوقف عن النظر وإعادة النظر في العقارب الفسفورية لساعتها الجميلة ، التي تقضم ببطء الساعات والدقائق .

طلبت مني الواشمة أن أخرج لها الحقيبة من الألمنيوم من تحت السرير .

سنونو آخر يتفقد جناحيه .

لا أحب الحقائب فهي تشبه المقابر .

هذه الحقيبة مغبرة .

قالت لي الواشمة : «منذ تسع وعشرين سنة لم تغادر هذه الحقيبة مكانها ، تحت هذا السرير ، فناء الرجال وكتاب القصص» .

هذه السيدة ، أحس بهذا ، كان لها شيء في الحلق ، شيء كحبة ملح كبيرة ، قطعة بكاء ، جرح حي .

كانت تحاول إخفاء حزنها وجرحها عني . أنا أيضا كنت أحاول أن أخفي حزني وجرحي : الرجال الذين يجامعون النساء ، يشربون الخمر ويحلقون وجوههم ولا يبكون أبدا . كان يسكنني فضول كبير : «ماذا تخفي هذه الحقيبة المقفلة منذ أكثر من ربع قرن ؟»

كان الرجال يتناوبون على مكبر الصوت في ساحة الماخور ، يرددون في خطبهم مواضيع عن الأخلاق والدين والجنة والنار وأعداء الله وعن الحرب المقدسة والمرأة وتجسد إبليس المغوي ، وعن أخت الشيطان من الرضاعة . وكان كل واحد بدوره يهنئ الحاج قمر الماخور محمد بن محمود بعودته من الأراضي المقدسة والحج ، وعن معركته المقدسة والمثالية ، التي انتصر فيها ضد الشيطان والمحرم .

لم تتأخر الواشمة في العثور على المفتاح الصغير للقفل الذي كان نائما لا أدري كم من الوقت ، بين نهدين ناعمين . اليدان من الشمع الأبيض ترتجفان . إنها المرة الأولى التي أرى فيها الواشمة في حالة محمومة ، مجردة من أدنى قوة تستطيع تدوير المفتاح الصغير بلون نحاسي في ثقب القفل . إنها تائهة ، جامدة وبلا شجاعة .

فقدت معنى الجنس . دخل قضيبي بين خصيتي . لقد اختفى !

يوم آخر يمر .

من مكاني ، جالس على زاوية السرير ، فناء الرجال ، وسجل القصص ، القدمان حافيتان أصابعهما مقلمة جيدا ، كنت أسمع صوت قمر الماخور : صوت ، صوت آخر ، عذله وفخمه القائم على لوحة التسجيل الملتحي . لقد فقد صوته الأنثوي كل العذوبة والحنان ، تحول

إلى سكة محراث قاطعة وعنيفة . كان قمر الماخور يتحدث إلى مستمعيه عن مشروع رآه في حلم قيلولة خلال حجه :

«أيها المؤمنون بالله ورسله ، في نوم قيلولة مطولة بين صلاة العصر والمغرب ، تراءى لي مخلوق من نور ، فتح قلبي ، وأخرج من أعماقي غماماً أسود كالزفت ، وبسرعة البرق صب نورا ببياض الثلج أو الحليب مكان الغمام .

ذهب تاركا تحت بلغتي الصفراء الفاسية التي كنت أستعملها كوسادة ، مخطط مسجد بسبع صوامع .

فتحت العينين على ظل الصوت الهادئ والمعسول لمؤذن أسود سوداني ، يدعو المؤمنين للصلاة . كان شبيها بأول مؤذن في الإسلام ، سيدنا بلال .»

كانت النساء تبكي ، والرجال عين الشيطان ينظرون إلى نور بعض النوافذ .

« ... انتهيت من وضوئي ، وفي قلبي أمنية تحقيق هذا الحلم : أبني مسجدا مكان ماخور لاك دوك .»

شرب قمر الماخور جرعة من الماء المقدس لزمزم مجلوب من الأماكن المقدسة وواصل خطابه :

« ... سوف نعمل على تحويل دار اللذة هذه إلى مكان مقدس »

تزويج كل المأجورات بمناضلينا في المدن والقرى وكل مقاومينا المسلحين المرابطين في الغابات وفي الأدغال . خلقت المرأة للزواج ، لتكون في خدمة زوجها المطلقة ، وطاعته حسب زواج المتعة أو الزواج الدائم . الإسلام في

حاجة إلى نساء ينجبن بقدر ما يستطعن . نبينا «ص» أوصانا بذلك : أريد أمة كثيرة العدد وقوية الإيمان .

الواشمة ، في صمت استهزائي مليء بالجراح ، النظرة العميقة مسمرة على بياض رجلي الجنسي ، ما زالتا عاريتين ، أخرجت من حقيبتها الملغزة أشياء : ألبسة ، أقمشة ومعاطف زفاف وحذاءين وحقيبة يد وخمس قطع للويس من ذهب وخاتم وقرطين مزينين بالنصف العلوي لتمثال نيفرتيتي . كانت تتكسر ، تتهشم من الداخل ، كنت مثل نورس أخرس ، اللسان مرصوصٌ ميتٌ ممددٌ في الفم .

كان ضجيج التصفيق الآتي من ساحة الماخور ، يصل إلى غرفة الواشمة . استولى علي إحساس بالخوف . كنت أشم رائحة موت مرعب يتسلق أدراج السلالم . أشم العطر الذي يتضوع من الملابس الجديدة للحقيبة .

كانت داعية بصوت نقي مرن تتحدث إلى الحضور المتجمع في الساحة :

«في القيروان بتونس ، أكثر من نصف بيوت الدعارة حول إلى أوقاف الحبوس .»

صوت هذه المرأة أيقظ بسرعة انتباه الواشمة .

لقد عرفتها .

للأذن لون العين . صرخت هذه الأخيرة ملقية نظرة على الساحة :

«إنه صوتها ... إنها سانجرية .»

كانت ترتدي خماراً وقفازين ، كلها سوداء ، الجسم مغطى جيداً من الرأس حتى أخمص القدمين .

استدارت الواشمة نحو صورة سانجرية المطبوعة على غلاف أسطوانتها الأولى من فئة خمس وأربعين دورة ، الملصقة على الحائط ، قائلة لها :

العين في العين كما في حالة الغياب ، كانت تهدي ، متحدثة إلى الصورة :

«أهذا هو قدرك ، قدرنا ، امرأة خرجت كقصة جميلة من جوٍ معطرٍ بالعنبر وسنابل الطيب والبخور ومن بيئة منقاة حيث الجميلات بأعين مكحلة بالسكينة ، وبخدود شبيهة بزهر الخزامى وورد الرمان ، تصب السكر في قلوب الرجال ، الرجال الحقيقيين ... هل هذا هو قدرك ، قدرنا ، قدر سبينوزا ؟»

جاءت سانجرية إلى هذا التجمع لتساند المرشحين في حملتهم الانتخابية . أعلنت أمام كل الحاضرين ، بأنها مستعدة بأن تدفع مبلغاً كبيراً لتساهم في بناء مسجد وتمول مدرسة قرآنية تابعة لهذا المسجد . صُفِقَ لسانجرية بحرارة .

تناول الكلمة الخطيب الشاب الملتحي بصوت عنيف وحاد . يعطي الانطباع بكلامه المبهرج بأنه ليس إلاَّ طالباً بالأدب العربي ، يجهد في تلاوة دروسه المحفوظة جيداً عارضاً ثقافته العامة في التاريخ ، العلوم وعلم اللاهوت . كان يتحدث عن إبراهيم بن الأغلب :

« ... في سنة 895 ، إبراهيم الأغلب ، حاكم تونسي ، في توبة عامة كسر كؤوس خمره الخاصة فصل العاهرات ونظف المدينة »

كانت الواشمة تخفي رغبة عنيفة في البكاء ، في رمي نفسها من سطح هذا الماخور ، في أن تطير بحرية من هذه النافذة للطابق الرابع وأن تبلغ السماء . لم أشأ أن أتركها في مثل هذه الحالة الذهنية .

الخطيب بصوته المراهق ، كان يتحدث عن الخليفة الحكيم الذي في سنة 1014 ، ذهب إلى حد منع خروج النساء إلى الشارع .

أفكر في هذا الخليفة الذي حرَّم لعب الشطرنج وبيع السمك بلا قشور !

أفكر في الماخور.

كنت أتأمل شكل وألوان فسيفساء الجدار الجميلة، اكتشفت فيها ملامح وجه أنثوي شبيه بالواشمة، أو على الأصح راقصة الفلامينكو، أو قنبلة أنثوية، غجرية إسبانية مليئة بالحياة، والرغبة والإيقاع والشمس وشيء شبيه بالشعر.

كانت الواشمة تارة تنظر إلي وأخرى تنظر إلى جهاز عرسها المحضر بالفرح والخوف، منذ خمس وثلاثين سنة، ربما أكثر، لتحيي عرساً كاذباً ومخفقاً. لم ترد استحضار قصة جهاز عرسها، ولا أنا، لم أشأ أن أفتح الجرح العميق من جديد الذي تحاول دفنه منذ زمن طويل في قلبها الهش.

آخر أخبار الماخور

عندما لا تكون عندي نساء بين الأغطية المستبلة كل يوم ثلاثاء ، أنظر إلى نفسي في مرآة الخزانة ، أفتح هذا الشيء الشبيه بهاوية ، بفمي وأحدث نفسي .

إنه عيد المرارة !

السيد ل . ب ، وزير الداخلية ، والتنظيم الإداري وإعداد التراب الوطني ، استمع إليه طويلا الصحفيون والمبعوثون الخاصون للقنوات الوطنية والأجنبية : AFP, Reuter, BBC, CNN, TF1, Canal plus ظهر مرتدياً زياً أسود ، كان حزن رمادي يغطي وجهه المحلوق جيداً ، المجمّل جيداً ، الأسنان منظفة جيدا وربطة العنق الرفيعة نازلة إلى أسفل البطن الكبيرة ، القاعة مكتظة بالكاميرات ، آلات التصوير بعدسات مرئية كبيرة ، السيد الوزير ل . ب ، وزير الداخلية ، يقرأ بعربية مكسرة نتائج الانتخابات المحلية ، معلناً في نصه الموجز ، انتصار لوائح قمر الماخور . السيد وزير الداخلية والتنظيم الإداري وإعداد التراب الوطني كان يعرق . قراءة النتائج لم تكلفه أكثر من ثلاث دقائق . انسحب تحت وابل العدسات وبرق الومضات . تحرك حشد الصحفيين لمحاصرته . في رمشة عين بلعت سيارة المرسيديس السيد ل . ب . السيد وزير الداخلية والتنظيم الإداري وإعداد التراب الوطني .

كان الاحتفال بالنصر في ماخور لاك دوك . ومسؤولوا قاعة الصلاة في فرحتهم المدوخة حتى حدود الجنون يعلنون للزوار الحائرين إزاء تصريح وزير الداخلية :

«إذا كان الحدث تاريخياً ، فإن الاحتفال سيكون أكثر »

أطلقت السانجرية زغرودة طويلة ، رفعت صوتها مغنية (بانت سعاد) قصيدة الشاعر كعب بن زهير شاعر الدعوة الإسلامية الحائر بين اختياره الإيديولوجي وحبه ، يمزج ثلاثة أنواع من الحب : الخمر ، العشيقة سعاد وحب الرسول «ص» . شاعر سكران ومجنون بحب صاعق منقسم بين سعاد والرسول «ص» والخمر ، ماء الحياة المقطر من ثمر بغداد المشهور .

جميل هو صوت سانجرية ، ما زال مليئاً ، عميقاً وهادئاً ومكسوراً . كانت من ماض مفعم بالحرية بالرجال والجعة والمكر الأنثوي والأسفار والغيرة واللحم التونسي المطحون المحشو وكل ألوان الألحان والموسيقى : العربية ، الأندلسية واليهودية والبربرية والإسبانية والفرنسية والبرتغالية والتركية وغيرها .

دخل الحاج قمر الماخور بعد أداء صلاة العِشاء متبوعة بالشفع والوتر ، المرحاض ليغرز تحميلة من العفيوم في مؤخرته .

في الناحية الأخرى من الماخور ، تصل موسيقى آتية من زقاق كسحتها ريح حزينة ورطبة ، جعلت أغطية الطاولات البلاستيكية والكراسي الصفر ترقص تقريباً مقهى ومطعم خال يسيره رجل متعب ينام نوم بقرة ، رأسه منحن ينام على مكتب الصرافة .

كانت الأزقة الضيقة المتسلقة والمعذّبة تبكي سرفانطيس .

وأنا مسعود ، بن مسعودة ، أشهد على الخرائب وعلى هذا الزمان الغادر الذي يضني النساء وسبينوزا .

لا أحب من ينادى علي بعطيل . أكره هذا العميد القاطن لشمال أفريقيا لخدمة فونيس ، هذا الغيور الذي لم يتردد في خنق ديديمونة الجميلة .

Buenos dias senor Cervantes .

قالت لي نوبة :

«أحب أبي ، الذي لم يسمح لي أبداً بأن أرى لون عينيه . ذهب هكذا ، ذهب في سن ثمانٍ وستين سنة ، دون أن يمهلني دقيقة لأرى عمق عينيه . أعين الرجال تُخيف حتى ولو كانت عيني أبي .»

كقطة جلست على حافة السرير ، إنها الحادية عشرة تقريباً . أشعلت سيجارة . تذكرت أننا نسينا جهاز التلفاز مشتغلاً .

شيء ما يحدث في التلفزيون . إنها الحادية عشرة تقريباً .

«لقد قتل الرئيس .»

أراه ، الرأس محطم ، ممدد على طاولة شيخ من اثنتين وسبعين سنة .

بعض المصابيح الحزينة مضاءة .

فرق من الملتحين ، الجبين يعرق ، تلمع أعين ثعالب متعطشة في رؤوسهم .

يجثم جو ثقيل وكئيب على المكان ، كان قديما يُزْهِرُ بالنساء ، والعطور ، والملذات والخمر والموسيقى كفنن شجرة فردوسية .

محروساً من قبل شابين ملتحيين ، والوجه مشرق خرج الحاج محمد بن محمود من المراحيض .

غادرت سانجرية الساحة ملقية نظرة مملوءة بالعطف على الغرفة المضاءة التي أهدرت فيها خمس عشرة سنة ذهبية من عمرها ومن ظل التاريخ .

النظرة الأخيرة ! لقد جاهدت سانجرية بأن تسحب القلب ، المربوط بالذكريات المنيرة بالنجوم والفرح والجنون الجميل . وجه إليها الكلمة أحد الناجحين في الانتخابات : «اجتماع كل الأعضاء المنتخبين للجمعية البلدية مرتقب غدا في الساعة التاسعة في فندق المدينة .» سانجرية في حلتها المرعبة ، اكتفت بأن تحرك الرأس . كانت تحاول بلا شك أن تحتفظ في ذاكرتها ببعض شتات ألوان هذه الفسيفساء الجدارية الجميلة .

اجتيحت غرف النساء من قبل الملتحين . الحاج قمر الماخور محمد بن محمود ، يعود إلى المراحيض لِيُدْخِلَ تحميلة من العفيون في مؤخرته صائحاً في الشباب :

«أيها المؤمنون ، جند الله اختاروا نساءكم ، خذوهن كأزواج ، سمح الله لنا بزواج المتعة . إنهن لكم .»

بمجرد أن يدخل تحميلة العفيون في المؤخرة يستعيد صوت الحاج قمر الماخور أنثويته وعذوبته .

الـرجـم

لماذا أنا ، أنا فقط ما أزال أفكر في هذا الماخور الذي دفنه الجميع في مقبرة نسيانه .

لا ننسى العطر والمواخير .

هذا الصباح المتآمر ، كانت السماء في الأسفل مملوءة بالفراغ على الفراغ . بمجرد الآذان لصلاة الفجر ، عاهرات على شكل عقرب سامة تقترب ببطء من ماخور لاك دوك . لقد كن محروسات من قبل قافلة من عربات الشرطة التي كانت تأخذ مواقعها شيئا فشيئا حول العمارة الغارقة في الظلام في كآبة سوداء . مرتدين زي الشرطة والجيش كان الملتحون يقتحمون العمارة . ثم ، غادروا المكان بالأسلحة في الأيدي يسوقون أمامهم حوالي عشر نساء من المأجورات . تحت تهديد الأسلحة البيض والنارية كنسوهن وأعينهن معصبات ، في عربتين لشرطة البلدية . بمجرد أن أغلقت الأبواب بقوة أخذت السيارات اتجاه

الأدغال حيث يعيش ويتدرب الجيش والاستشهاديون لكي يوزعن على الأمير والمجاهدين كأول غنيمة للنصر .

أمير يستعمل جمجمة *صحفي منفضة* : الصورة لا أدري هل تسخنني أم تبردني . تقيأت .

نار كبيرة يعلوها دخان رمادي ، لهيبها يلحس السماء التي شيئاً فشيئاً تقفز نحو الأعلى .

وأنا مسعود بن مسعودة ، أشهد تحت هذه السماء التي كانت قديماً زرقاء ، مغوية ومشعة على مدينة تحب الإله باخوس وموسيقى الراي .

على الأرصفة الحزينة لمدينة تنام على رماد جسدها المحروق وعلى أجساد المارة الذين يهدون :

«وُجِدَت الواشمة مكلسة ، عظام يديها تحيط بباقي حقيبة فضية كبيرة .»

كانت المرأة بسروال الجينز المرقع على الردفين تنتقي صورها الفوتوغرافية الرقمية لعظام الموتى على شاشة تلفاز كبيرة ، بالألوان . كانت راضية على نوعية التحميض . كانت تتحدث إلى هابيل عن نوعية آلتها الفوتوغرافية الرقمية . ميزت على صورة المرأة البدينة ومصاصتها . لقد ماتت ، هذه المرأة البدينة واللطيفة .

قال آخر : «لقد رأيتها ، الواشمة ، من لحم وعظم ، بأم عيني ، مقبوضا عليها ، محمولة في عربة شرطة البلدية نحو أعالي المدينة .»

كارين في الممر ، أشم عطر كلبها . كانت تترصدني . أعرف اليوم بأنها تحمل رافعة نهديها ، إذاً فهي في حالة الطمث .

الثالث صرح : «رأيتها في صباح الحريق ، بيدها حقيبة فضية ، تائهة في شوارع مدينة أخرى . كانت تتحدث مع نفسها ، كان على الشفتين الجافتين مقطع صغير من أغنية بحارة وهران الإسبانيين .»

يتحدث هابيل عن الشرطة القضائية التي منعت الدخول إلى ورشة الأبحاث الأركيولوجية والتي وضعت الختم على مستودع عظام الموتى والمخطوطات .

الهاتف يرن . رفعت عيني المتعبة نحو عقارب الساعة الكبيرة الصفراء الفاقعة ، بلون الذهب ، والمشتراة من بيروت : إنها الثانية صباحاً وخمس وأربعون دقيقة .

إنه صوت نوبة : «لقد اختطفوا مليك .»

قطعت المكالمة الهاتفية .

سارعت نحو المستشفى . عندي دائماً خوف أزرق من المستشفيات .

وفي المستشفى ، في موقف السيارات حيث تقف حوالي عشر سيارات إسعاف معطلة ، وجدت ثلاثة عناصر من الشرطة ، بمصابيح يدوية ضوءها خافت برفقة خمس ممرضات وطبيب المداومة بصدد البحث في حاويات القمامة الضخمة . كانوا يبحثون عن جسد ابني . صرحت ممرضة لاحظت أنها 'مجَمّلة جيداً لثلاثة عناصر من الشرطة نعسانين :

«لهم عادة ذبحهم أو خنقهم ورميهم في حاويات القمامة .»

ثم ، بنظرة بلا أعين ، استدارت نحوي وبنبرة هادئة ويقينية ، وجهت إلي الكلام ، إنها مجملة بدقة : «لا تقلقوا ، سيدي ... [اسمي مسعود بن مسعود وأرفض لأي كان بأن يسميني (عطيل) ، هذا العميد الذي بيع للملك فونيس] ... سنجد جثة ابنك . هنا [الممرضة تلحس أحمر شفتيها] ، لم يقيموا بعد أفرانا للخبز من أجل طهي الصبيان .»

انفجار قنبلة مزق الليل .

وأنا ، مسعود بن مسعود بين الحياة وبياض الورقة أحصر الجرح المتكلم .

في هذيانها . نوبة كانت تبكي ، تدمي ، ضممتها نحوي . كانت سنونو الجنة . أحس بها ساخنة . الذهن شارد ، العينان سوداوان جميلتان ومتعبتان ، كانت نوبة جميلة أيضاً ومشعة أكثر من ذي قبل .

كانت لي رغبة أن أقرأ لها التاريخ المكتوب في المخطوط الذي عثر عليه في قبر مسعود الأكبر ، تاريخ الغيرة : «غيرة الرجال» (بين الخرائطي والنَبّاح والمترجم) .

لقد فقدت لسانها وإحساس الأرض والسمع ومليك .

الفهرس

الإهداء 5

مستشفى الجذام 7

لغة الطير 15

وحدهم الأموات قادرون على الاحتفاظ بمقابرهم 18

صمت فرح مكتوم 25

ورطة امرأة شمسية 36

عطيل ، الغيور 40

أنصت إلى الطلى 42

المقام 48

القيلولة 55

عندما تنام الكلمات أسجل أحلامها 60

تأميم الماخور 67

التفاحة الربانية 76

المشربية 84

جوج وماجوج 90

دودة القز 96

الميت السعيد 98
أسلمة الماخور 111
معجم المحققين في محاكم التفتيش 113
الإسفنج 118
الباشا 122
للرجال ، أيضاً ، همومهم 130
آخر أخبار الماخور 138
الرجم 142
الفهرس 146

لقد مات والفنجان في الفم.

سريري مملوء. أشاهده وأمتلئ.

في الأسفل. مدينة نسيها الفرسان المتعبون، أو هجرها أجدادنا القراصنة المشهورون على شاطئ هذا البحر الذي يفقد أكثر فأكثر لونه وملحه. في شارع الألزاس لورين الذي سمي منذ السنين الأولى للاستقلال محمد خميستي. تحت شمس عمياء، وصراخ المارة الحزانى بملامحهم الباهتة وضجيج منبهات السيارات المندفعة من كل الأنواع، فرنسية، يابانية وألمانية. كان يصل إلى هذا الطابق الذي نقطن فيه. نحن الأربعة منذ خمس سنين. المصعد عاطل منذ عشرين سنة. حجرته تحولت إلى شقة صغيرة. تشغلها امرأة وعشيقها وأبناؤها الثلاثة. أحب انتظار الوقت الذي تكون فيه هذه المرأة في نار نشوتها. في عز الليل الشتوي أو الصيفي. لا يهم. نطلق دون تحفظ غنج ذئبة ضارية. أتصورها بصدد افتراس زوجها بانقضاضات صغيرة. اسمها زفطة. هذه الكلمة تعني (جميلة) باللهجة الوهرانية.



13 RUE LES FRERES BOULAHDOUR 16000, ALGER, ALGERIE.
TEL/FAX : (++ 213) 21 74 45 44.

